قصة روميو وجولييت

من هما العاشقان اللذان خلد شكسبير اسميهما؟

قصة روميو وجولييت

بول ريبو

ترجمة: حبيب جاماتي

الطبعة: ٢٠٢٣

العربية للاعلام والفنون والدراسات الانسانية والنشر

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكو ر - الهرم – الجيزة - مصر
هاتف: ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

http://www.azhabooks.com
E-mail: info@azhabooks.com

بطاقة فهرسة أثناء النشر

بول ريبو. - ترجمة: حبيب جاماتي - قصة روميو وجولييت
- الجيزة – أزهى، ٢٠٢٢
٢١٧ ص، ١٨*٢١ سم.
الترقيم الدولي: ٢ – ١ – ٨٦٦١٧ – ٩٧٧ - ٩٧٨
أ – العنوان   رقم الإيداع: ٧٢٩٤ / ٢٠٢٣

بول ريبو

قصة روميو وجولييت

من هما العاشقان اللذان خلد شكسبير اسميهما؟

ترجمة

حبيب جاماتي

مقدمة

قصة روميو وجولييت مزيج من الأسطورة والتاريخ، والحقيقة والخيال، قصة فتى وفتاة عاشقين، رواها كتاب وتغنى بها شعراء، جيلاً بعد جيل، منذ القرن الرابع عشر إلى أيامنا هذه؛ مازوتشيو دي سالرنو، لويجي دا بورتو، دانتي البجييري؛ كليزبادي فيروني. ماتيو بانديللو، آرثر بروك وغيرهم. وجعل شكسبير من مأساة العاشقين اللذين راحا ضحية الحب، موضوعاً لإحدى مسرحياته الخالدة، بعنوان "روميو وجولييت" وهي أروع ما جادت به القرائح وسطرته الأقلام، في هذا الموضوع. وقد ظهرت مسرحية شكسبير في آخر القرن السادس عشر. واقبس منها جول باربيين وميشيل كاري في أواخر القرن التاسع عشر، موضوع رواية غنائية وضع موسيقاها شارل جونو.

وترجمت المسرحية إلى العربية بعنوان "شهداء الغرام" ومثلتها بالقاهرة، في أوائل القرن العشرين، فرقة الشيخ سلامة حجازي. وبها أناشيد وقصائد لحنها وغناها ذلك النابغة العظيم، الذي قام في المسرحية بدور العاشق روميو. منها قصيدة مطلعها:

سـلام على حسـن يد الموت لم يكن لتمحوه أو تمحو هواه من القلـب

وأخرى مطلعها:

عليك سـلام الله يا شـبه من أهوى فيا حبذا لو كنت تسـمع لي شـكوى

وكان صوت الشيخ سلامة حجازي ينتزع الدموع من المتلقي في أكثر من مقطع واحد من تلك الألحان، نذكر منها هنا، مثلاً، نداء الحبيب لحبيبته

الراقدة بلا حراك: "أجولييت ما هذا السكون؟.. لا.

ومأساة روميو وجولييت من الموضوعات التي تلقفها فن السينما فقد أخرجت على الشاشة في أفلام عديدة، في عهدي السينما الصامت والناطق، وأخيراً بالألوان الطبيعية.

واصبح اسما روميو وجولييت، على مر الأيام، رمزاً للحب الجارف والوفاء له حتى الموت، كما أصبح اسما أسرتيهما المتخاصمتين رمزاً للحقد والعداء.

وفي مدينة "فيرونا" بمقاطعة البندقية – بإيطاليا – بيت قديم يؤكد السكان أنه البيت الذي عاشت فيه جولييت، وإن شرفته الصغيرة المطلة على الشارع الضيق، هي التي كانت الفتاة العاشقة تناجي منها فتاها المتيم.

وفي قبر دير الرهبان الفرنسيسكان، بالمدينة التاريخية، نعش مصنوع من المرمر، يؤكد الناس أيضاً أنه كان يضم رفات العاشقين.

والقير والبيت من الآثار التي تجلب السائحين إلى فيرونا. وقد أتيحت لي الفرصة لزيارتهما، فأصغيت إلى حارس القبر وهو يروي النوادر عن عشاق أتوا من بلدان بعيدة، ليلمسوا النعش المرمري ويتبركوا به. ظناً منهم أن في هذا ما يضمن لهم السعادة والهناء في مستقبل الأيام، ووقفت تحت الشرفة التي يخيل للناظر إليها ليلاً أن طيف روميو يحاول، مرة أخرى، أن يتسلقها للقاء طيف حبيبته. وفي إحدى المكتبات، وبين عشرات الكتب المخصصة للمأساة المؤثرة، لفت نظري كتاب لم أعرفه من قبل، وهو قصة روميو وجولييت للمؤلف الفرنسي "بول ريو" وما أن انتهيت من مطالعته، حتى

بدأت بترجمته إلى العربية، لاعتقادي بأنه أصدق وأوفى ما سطرته أقلام الباحثين، وأسفرت عنه دراستهم. من الناحية التاريخية، في موضوع طرقه الكتاب من جميع أبوابه، وفي مختلف اللغات.

من هو العاشقان اللذان يضرب بهما المثل، واللذان خلد شكسبير اسميهما في مسرحيته المشهورة، وأوحت مأساتهما إلى الفنانين بمقطوعات موسيقية ساحرة، ولوحات ورسوم رائعة؟ هل عاشا حقيقة؟ وهل حدث لهما فعلاً ما رواه عنهما الكتاب؟ ذلك ما عني بدراسته بول ريبو على ضوء الوقائع التاريخية والوثائق الصحيحة. وقد خدم ريبو بذلك فن القصة وعلم التاريخ معاً. وصور العصر الذي وقع فيه الحادث تصويراً واضحاً دقيقاً. وتوخى الفائدة التاريخية ولذة الفن القصصي، وتجنب ما يحسه القارئ من سأم وملل، حين تروى له وقائع التاريخ في أسلوب جاف. وللمؤلف روايات عديدة عمادها التاريخ، يحتل في عالم الأدب مكانة ممتازة، بينها مجوعة من القصد استوحاها بول ريبو من صميم الحياة العربية. والعادات والتقاليد الإسلامية، في أثناء إقامته بالجزائر وقبيل وفاته بقليل.

وقد صدرت هذه الترجمة لقصة روميو وجولييت، لبول ريبو، في طبعة أولى وتصدر الآن في طبعة ثانية، مراجعة ومنقحة، ورجائي أن يجد فيها القارئ ما أحرص دائماً على أن أوفره له، في كتبي الموضوعة والمقتبسة والمترجمة، الفائدة والتسلية في آن واحد.

حبيب جاماتي

القاهرة: يونيو ١٩٦٢

تصدير المؤلف

هدفت في هذا الكتاب إلى تسلية القارئ وإثارة اهتمامه إلى أقص ما استطعت، على إني من الوجهة التاريخية تحريت الدقة إلى أبعد حد.

ولعلي تخليت هنا وهناك عن بعض وقائع ثانوية، غير إني حرصت دائماً على أن أراعي فيها الاحتمالات النفسانية، وعلى أن أستخدم صوراً وألواناً تطابق كل المطابقة أحوال العصر الذي أردت أن أصوره. ويهمني أن أوكد هذا للقراء الذين قد يميلون إلى اتهامي باختلاق الأحداث دون مراعاة الحقائق.

إن كتاب التاريخ كثيراً ما يؤلفون كتباً مملة، ولكن هذا لا يعني أن هذه الكتب المملة هي وحدها التي تتوخى الحقائق التاريخية.

وقد ذكر "لويدجي دابورتو" – أول إيطالي رو حكاية روميو وجولييت. أنها جرت في سنة ١٣٠٥، فهي إذن ترجع إلى العمور الوسطى التي تبدأ منذ انقسام الإمبراطورية الرومانية سنة ١٤٩٥ حتى استيلاء الترك على القسطنطينية سنة ١٤٥٣. وليست راجعة إلى عصر النهضة الذي ازدهر في أوروبا الغربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ومن هنا حاولت جهدي – وأنا ألبسها ثوب حدث تاريخي – أن أحيي فيها ما أثر عن الإيطاليين الذين عاصروا الحروب الصليبية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر من صور وعادات ومشاعر وتقاليد.

وكذلك آثرت أن أطلق على أسرتي "روميو وجولييت" اسمي: "مونتيكي"

و"كابلليتي" متابعاً في ذلك "لويدجي دابورتو" بدلاً من اسمي الأسرتين بالفرنسية، "مونتيجو" و "كابوليت"

وأرجو من القارئ أن يتمثل أشخاص الرواية مثل كل أهل العصور الوسطى، اتقياء سذجا خستين. ذوي نفوس مرحة. في ثياب تماثل ثياب النبلاء والنبيلات المنقوشة على الأضرحة في إيطاليا.

الفصل الأول

عداء بين أسرتين

مدينة العاشقين

خرج أحد المهرجين الطوافين من بلدته في فرنسا، وأخذ يجوب البلاد في طلب الرزق، ولما لم يجد ما كان يرجو في وطنه، اجتاز الحدود إل إيطاليا، وبعد أن طاف بعض القرى والمدن وصل إلى مدينة فيرونا[1] المشيدة على أحد منعطفات نهر أويجي.

كانت فيرونا محاطة بأسوار عالية. وكانت المنازل خلف الأسوار متجاورة متلاصقة والشوارع ضيقة غير نظيفة.

مر المهرج على أحد جسور النهر ودخل المدينة، فلما رآها على هذه الحال صاح:

– ما أتعس هذه المدينة! وما أتعس حظي الذي قادني إليها!

وكان ذلك المهرج المسكين قد ترك بلاده منذ الربيع حاملاً على كتفيه قرداً على ظهره مندولينا كبيرة، ويقود خلفه كلبين مربوطين بسلاسل حديدية، وحدث المهرج نفسه فقال:

---

[1] فيرونا من أكبر مدن إيطاليا القديمة وأشهرها، وبها آثار رومانية عديدة بينها ميدان للألعاب وكنيسة، وكانت خلال بعض العصور الوسطى جمهورية مستقلة، ويوجد خارجها الآن قسم كبير من المباني المشيدة على الطراز الحديث.

– كنت أظن أن سنة ١٢٨٢

ستكون خيراً من سنة ١٢٨١، ولكن النحس لا يزال يتعقبني وها قد مضى علي يومان لم آكل فيهما كسرة من الخبز.

وسار الرجل في الطرقات الملآى بالأوحال حتى وصل إلى ساحة الكاتدرائية، وكان القرد يصرخ والكلبان ينبحان مما أصابهما من التعب والجوع، وهنالك وقف الرجل أمام دار مبنية بأحجار حمراء مسنداً ظهره إلى الجدار الذي يتوسطه بابها الكبير. وبعد قليل فتح أحد الخدم ذلك الباب فبدا لعين المهرج فناء الدار الداخلي الفسيح، يتوسطه بئر، وتعلو واجهه شارة شرف منقوشة عليها، وقال للخادم:

- ألا تشفقون على مسيحي وعلى حيواناته وتجودون ببعض فضلات الطعام؟

فسأله الخادم باللغة الفرنسية، من أي بلد أنت يا صديقي؟. فقال: أنا من فرنسا. وأرجو أن يتفضل النبيل صاحب هذا القصر فيجود علي بشيء من الطعام ويفسح لي مكاناً آوي إليه أنا وحيواناتي للراحة والنوم!".

فهز الخادم رأسه وقال:

– إذا كنت من فرنسا فالأمل ضعيف لأن السيد مولتيكي رب هذا القصر من حزب جيبلين أنصار إمبراطور ألمانيا[٢].

---

[٢] في القرن الثاني عشر اتحدت المدن الإيطالية الكبيرة مع الباباوات وأصحاب السلطة الزمنية. ثم حاربوا ألمانيا وتحرروا من سيطرتها، ونشأت على أثر ذلك جمهوريات مستقلة في إيطاليا، كما ظهرت

فقال المهرج: "ليس لنا أن نعلق آمالنا في كرم النبيلة ربة الدار السيدة مونتيكي؟".

فهز الخادم كتفيه وقال: "كلا؛ أن النبيلة مونتيكي لا يمكن أن تحصل منها على شيء فهي أبعد النساء عن الإحسان والجود، هذا إلى أنها لا يمكن أن تعطف على أمثالك من أنصار البابوية!".

فأخذ المهرج يقلب يديه ويهز رأسه مبدياً بذلك ما خالجه من اليأس والحسرة، وكأنما رق له قلب الخادم الطيب، فقال له بعد أن نصح له بالانصراف:

– تستطيع أن تسلك هذا الزقاق القريب. فيؤدي بك إلى قصر آل كابلليتي – إنهم من أنصار البابوية، ومتى علموا أنك فرنسي من حزبهم فيكرمون وفادتك ويمدون إليك يد البر والعطف. وهم والسيد مونتيكي صاحب هذا القصر أغنى نبلاء هذه المدينة وأقواهم.

وقبل أن ينصرف المهرج المسكين، استوقفه الخادم وأشر إليه قائلاً:

– حذار أن تذكر هناك أنك لجأت أو حاولت اللجوء إلى قصرنا هذا، وإلا فقد يطردونك شر طردة!.. أفهمت؟

فأومأ المهرج برأسه موافقاً وشكر الخادم قائلاً:

– لن أرتكب هذه الغلطة يا صديقي الطيب القلب!

مملكة نابولي. وانقسم الإيطاليون فريقين: أحدهما يناصر النظام الجديد، ويطلق عليه اسم (جيلف) والآخر يميل إلى ألمانيا ويطلق عليه اسم (جيبلين).

وكان المهرج قد اطمأن حقاً إلى طيبة قلب ذلك الخادم، وأدرك من حديثه حقيقة ما كان القوم في فرنسا يتحدثون به عن أحوال أهل فيرونا وما يسود علاقات أهلها من العداوة والبغضاء، فاستأنف الكلام وقال:

– أهكذا يتحارب دائماً هؤلاء النبلاء آل مونتيكي وكابلليتي؟!

ولم يجب الخادم عن هذا السؤال، إذ تذكر في هذه اللحظة شيئاً فقال للمهرج:

- انتظر يا صديقي. إن القوم هنا يستعدون للاحتفال بحادث سعيد.. أن النبيلة مونتيكي قد أنجبت ولداً، ودنان النبيذ ملآى حتى أفواهها، ولعلي أستطيع أن أعطيك شيئاً منه، فهات قربتك لأملأها لك؟

وأخذت المهرج نشوة الفرح، فجعل يقذف في الهواء بغطاء رأسه ويهتف قائلاً:

– عاش آل مونتيكي.. عاش النبلاء الكرام!

وأدار الكلبان آذانهما نحوه وكأنما شعرا بأن فرحة صاحبهما تعني توقع حصولهما معه على شيء من الطعام، وأخذ القرد يقفز هو الآخر مشاركاً صاحبه في المرح والابتهاج، بينما علا في الوقت نفسه نباح كلاب القصر في حظيرتها الخاصة بداخله. وأطلت بعض وجود متساءلة من خلال المتاريس.

– وسارع الخادم الطيب القلب فجذب المهرج إلى رواق قريب وهو يقول له:

– اسكت أيها الأبله!

ومشى المهرج معه ساكتاً حتى بلغا ذلك الرواق، فلما أطمأن إلى أن أحداً غيره لا يسمعه، نظر إليه في دهشة وقال:

– ما هذا؟!.. هل السيد مونتيكي بعيد عن المروءة والإحسان إلى هذا الحد؟

فقال الخادم بصوت أقرب إلى الهمس:

– أن النبيل مونتيكي رجل طيب، ولكن امرأته تحب الخصام والنزاع، وهي شديدة البخل حتى أنها لتحصى حبات عناقيد العنب، ومع أنها الآن على فراش الوضع والمولدات حولها، فليس بعيداً أن توصل من يراقبنا، وحينئذ لا أستطيع أن أضع في قربتك نقطة من النبيذ.. وقد ينالني عقاب شديد!

وبعد قليل. اتجه الرجلان نحو مطابخ القصر في بطء وحذر.. تم ساد السكون التام فناء القصر..

كانت النبيلة مونتيكي راقدة في الغرفة الخاصة بها في الطابق الأول من برج القصر. وهي سيدة في العقد الرابع من عمرها، ذات شعر له لون التراب. وحاجبين عاليين، وأنف أقني كبير يطل على فم واسع دقيق الشفتين.

وكانت هيئة وجهها تنم عن كثير من الغلظة والجفاء والشراسة، فلا عجب أن أجمعت القائمات بخدمتها على رهبة جانبها توقيا لأذاهما.

وعلى الصدر فيما بينهن بتقتيرها الشديد وحماقتها وحدة طبعها وسلاطة لسانها، حتى لقد شاع بينهن أن من تقضي سنة كاملة في خدمتها تضمن لنفسها الجنة في الآخرة.

وكانت الحركة شديدة غير عادية في الغرفة، والنساء القائمات على خدمة ربة الدار، يتابعن في أداء أعمالهن في نشاط وخفة ملحوظين، وقد فرشت أرض الغرفة بالزهور والرياحين حسب تقاليد القرن الثالث عشر لتفوح منها روائح ذكية منعشة، ولكي تطأ الأرجل شيئاً طرياً فلا يكون وقعها شديداً على الأسماع؟

وهناك إلى جوار السرير، كانت تقوم أرجوحة ثمينة، وضع فيها وليد النبيلة الذي رأى النور يوم عيد القديس يوحنا، وعليه لفائف عديدة شدت إلى جسمه منذ ساعة ولادته، إذ كانت الوالدات في تلك الأيام يحرصن كل الحرص على إحاطة الطفل منذ ولادته بمثل هذه اللفائف مخافة أن ينشأ بأربع أرجل.

وأقبلت خادمة نحو السرير وقدمت للسيدة مونتيكي قدحاً فيه سائل لإدرار لبن الأمهات، وكان الطبيب قد أوصى بذلك، فحركته السيدة في الكوب ثم شربته كله في جرعة واحدة، بينما بدت ملامح وجهها تضحك.

وعلى أثر ذلك، استوت جالسة على سريرها بمعاونة بعض الخادمات. أخذ صوتها الجاف الأجش يلعلع في أرجاء الغرفة، وهي تصدر الأوامر والتعليمات للخادمات، فتطلب من إحداهن أن تزيد في سرعة مشيها، وتأمر أخرى بأن ترتب الغرفة وفق نظام معين، وتكلف ثالثة أن تضع فوق إحدى المناضد بعض الهدايا التي قدمت لها من الأصدقاء والصديقات، أو بعض المشروبات المنعشة، استعداداً لتقديمها بعد قليل للزائرات القادمات لتهنئتها بالمولود.

وهكذا رتبت السيدة مونتيكي كل شيء في غرفتها وفي الدار لأجل استقبال المهنئين والمهنئات في مدى خمسة عشر يوماً على الأقل.

وكان الخدم والحشم يتسابقون إلى تنفيذ الأوامر والتعليمات، ويبالغون في أعمال التنظيف والتنظيم والترتيب، ليكون كل شيء على أحسن حال عند حضور الزوار.

أما المرضعان فلم تكونا تهتمان بزينتهما لتبهرا الزائرات، وانحصر كل همهما في العناية بالطفل السعيد الذي ملأ ميلاده القصر غبطة وبهجة وشرح صدور الأصدقاء والأنصار.

كان قصر آل مونتيكي في فيرونا يطل على النهر، وموقعه على الحدود الفاصلة بين المدينة والمزارع، فهو قصر ومزرعة في الوقت نفسه. وكانت له واجهة بسيطة فيها باب ضيق للدخول، وفي الداخل حول فناء فسيح تقوم المساكن والغرف، وبين القصر والنهر مرج وحظيرة كلاب، وفرن واسطبلات، وعند آخر المرج على شاطئ النهر ميناء صغير ترسو فيه ثلاثة قوارب لخدمة أصحاب القصر وأنصارهم وأصدقائهم، وفي مدخل القصر كانت تقوم غرفة الأسلحة، تغطي جدرانها الأعلام وبعض تحف وصور تذكر بالصيد والقنص وبعض الحيوانات والطيور الغريبة. ويبنها صور فرسان يحاربون تنانين، وملائكة يخفون إلى مساعدة المضطهدين في سبيل الدين!. وكان الصعود إلى الطابق الأول من القصر يتم بوساطة سلالم تضيئها مشاعل تبقى موقدة ليل نهار، وفي هذا الطابق كانت مخادع سادات القصر حيث ينامون.

وكان السيد مونتيكي بديناً. عيناه بارزتان، وشفتاه غليظتان، ووجهه ضاحك ينم عن سرور وغبطة في حياته.

على أنه رغم هذه الظواهر الجذابة كان الحقد يملأ جوارحه أحياناً، وكان من أنصار الإمبراطور البير، يكره عامة الشعب، كما يكره البابا معتقداً أنه لا يصلح للحكم الزمني!

وكثيراً ما كان هذا الرجل الطيب القلب القوي العضلات ينتقد الذين يحبون الأفكار الجديدة، وكانت بعض الظروف الخاصة قد جعلته يكره حزب البابوية الذي يقف أنصاره إلى جانب البابا ويدافعون عن حقوق الفقراء والعامة.

ومنذ مائة عام قبل ذلك التاريخ أحب فتى من آل مونتيكي فتاة من آل كابلليتي، وبرغم الخلاف السياسي الذي كان سائداً يومئذ بين الأسرتين الكبيرتين، تم الاتفاق على اقتران الفتى بالفتاة، وحدد يوم الاحتفال بعقد هذا القران.

وفي ذلك اليوم، وبينما الفتى يصعد درجات سلم الكنيسة، يحيط به لفيف من آل مونتيكي هجم عليه بعض أنصار البابوية الحانقين على أسرته لإغفالها دعوتهم إلى الحفلة، وجرت بين الفريقين معركة حامية، انتهت بقتل الفتى على درجات الكنيسة، وكان قاتله من آل كابلليتي!

ومنذ ذلك اليوم اشتد الخصام بين الأسرتين وأخذ يزداد يوماً بعد يوم!

وكان "البرتو ديللا سكالا" حاكم مدينة فيرونا مناصراً لآل مونتيكي لأنه مثلهم من حزب الإمبراطوريين، بينما آل كابلليتي– وهم باباويون – يؤلفون

حزب المعارضة، وهكذا انقسمت المدينة إلى حزبين يحارب أحدهما الآخر. وكان طبيعياً أن يسند فرح كل من الأسرتين كلما ولد لها طفل يزيد في عددها، وكانت ظروف السيد مونتيكي نفسه مما يجعل فرحته أشد بوليده، اذ إذ كان أول ولد ذكر يرزق به بعد عدة سنوات من زواجه.

الطفل روميو

دخل أحد الخدم على السيدة مونتيكي وقال:

– أتسمح سيدتي بأن يدخل المنجم الذي طلبته؟

فانفرجت أسارير وجه السيدة، واعتدلت في جلستها قليلاً، وصاحت بالخادم قائلة:

- أين هو المنجم؟، هيا أحضره فوراً، وادع سيدك أيضاً لأني أريد أن يكون حاضراً، اذهب سريعاً، وإياك أن تتلكأ كعادتك فأنت مثال البطء والتراخي والإهمال.

وحنى الخادم رأسه مطيعاً، ثم انصرف مسرعاً وما لبث غير قليل ثم عاد ومعه المنجم المطلوب.

ونظرت السيدة إلى المنجم فإذا هو ذو رقبة دقيقة، ورأس شبه البيضة، ولحيته الكثة تتدلى على صدره، وقد ازدانت سبابة يده اليمنى بخاتم كبير براق، عليه علامات سحرية رمزية.

فقطبت السيدة وجهها وقالت له بلهجتها الجافة الخشنة:

– لقد دعوتك يا سيد جوالتيبروس كما هي العادة لتكشف لنا طالع

الولد الذي أنعمت به علينا السماء، فأرجو أن تقول لنا خيراً.

فانحنى أمامها جوالتييروس مبدياً الإجلال والامتثال، ثم أخذ يقرأ في كتاب كان يحمله بين يديه ويشير إلى بعض علامات بإصبعه، وبعد القراءة والتمعن قال:

– بعد استشارة الكواكب الخاصة بهذا اليوم الخامس عشر من شهر يونيو، أرى أن الأحوال طيبة، ويمكن أن أقول..

وسكت المنجم فجأة، إذ فتح الباب في هذه اللحظة ودخل السيد مونتيكي هاشا باشا، وصاح قائلاً:

– أهذا السيد جوالتييوس أتى يتنبأ بالطالع السعيد المفرح، إني أحييك أيها السيد العالم وأتمنى لك من السعادة قدر ما ستنبئنا به عن هذا الوليد.

ثم خطا مقترباً من الأرجوحة التي بها الطفل، فلما بلغها وقف يأمل وجه الطفل وهو لا يكاد يظهر، لكثرة ما كان عليه من الأربطة واللفائف، ثم مد السيد مونتيكي يده ولمس أصابع الطفل، ففتح هذا جفنيه وفمه قليلاً، وسرعان ما غمر البشر وجه أبيه وصاح قائلاً:

– ها هو ذا يضحك!

ثم ضرب بيده على فخذه واستطرد قائلاً:

- سيكون شاباً عظيماً من أنصار الإمبراطور. هلم أحضروا كأساً من النبذ لأبلل به وجهه و...

فقطعت زوجته كلامه في خشونة وقالت:

– كلا!.. لا تفعل هذا، لأنه يكون زراية بسر العماد المقدس وهو مألا أقبله!

فبادر السيد مونتيكي بالعدول عن اقتراحه قائلاً:

– حسناً!. لن يكون إلا ما تريدين؟

وكان تصرف الزوجة دليلاً جديداً على رغبتها في إذلال زوجها، وهو ما تعوده منها منذ اتصلا بالزواج، ولم يكن ميالاً إلى المخاصمة فأذعن لرأي زوجته حسب عادته، ثم نظر إلى النجم فرآه متجهماً فقال له:

– ماذا؟. أراك عابساً تبدو في وجهك علامات القلق والاضطراب!.

هل رأيت في طالع الطفل ما يكدر؟!

فتردد المنجم أولاً، ثم قال:

– أبداً بشكر الله الذي سيحمي الطفل في بداية عمره. ثم أرى الأحرى بي أن ألزم الصمت فلا أقول شيئاً بعد ذلك!

فقال له السيد مونتيكي!

– بل يجب أن تتكلم!

فبدا التردد في وجه المنجم، ثم قال:

– أما مستقبل الطفل فلست أذكر ما تدل عليه الطوالع في شأنه لأني...

فقطع السيد مونتيكي كلام النجم قائلاً:

– قلت ل : يجب أن تتكلم...

فقال المنجم: "تدل مقارنة الكواكب على أن الطفل روميو متى بلغ الخامسة والعشرين من عمره فيجب عليه أن يتحاشى رجلاً آتياً من الشرق!".

فسكت السيد مونتيكي قليلاً، ثم هز رأسه وقال:

– هل ذلك الرجل عدو قادم للحرب؟

قال المنجم: "لست أرى هذا الرجل يحمل سلاحاً، ولن يحاول السيد روميو أن يقتله، بل هو على عكس ذلك سيدفع له مالاً ثمناً ؟؟ الذي سيصيبه منه".

وهنا قالت السيدة مونتيكي.

– وبعد سن الخامسة والعشرين هل يزول الخطر؟

وذكر المنجم أنه لا يستطيع أن يكشف الطوالع بعد تلك السن لاضطراب الأرقام والعلامات وتناقضها فقال:

- إني أرى علامات مختلفة لا يتصل شيء منها بولد كما الشاب!

وضحك السيد مونتيكي، ثم قال:

– لم أنفق مالي عبثاً إذ دعوتك إلى هنا، فقد علمنا أن ولدنا بعد الخامسة والعشرين سيكون سعيداً ويتزوج زواجاً مباركاً، وإن كان الناس يقولون أن الزواج السعيد لا يكون عادة إلا بين زوج أصم وزوجة عمياء.

ثم ألقى نظرة ساخرة على زوجته، فعضت هي شفتها وأخذت جفونها ترتفع وتتلاصق.

ولما غادر النجم الغرفة مزوداً بالمكافأة، كان يحدث نفسه قائلاً:

– حسناً!.. لقد دلت الطوالع على أن حياة الشاب روميو توشك أن تنقطع فجأة بعد بلوغه الخامسة والعشرين، وقد يكون انقطاعها بموت قاس شنيع، ولكن كان يجب ألا أدلي إلى السيد مونتيكي بمثل هذه النبوءات المزعجة، ولاسيما أنه كان يبدو مطمئناً إلى مستقبل ولده، واثقاً بأنه سيكون على ما يرام.

وكان من بين أول من طيرت إليهم أنباء الولادة السعيدة – ولادة السيدة مونتيكي – الأب لورنزو القصير القامة، وهو راهب من أتباع القديس فرنسوا داسيز، يلبس ثوباً رمادياً ويتمنطق بحبل حول وسطه وينتعل صندلاً. وكان رأسه حليقاً. حوله إكليل من الشعر، وكانت له عينان واسعتان زرقاوان وشفتان عريضتان. كما كان جلده ضارباً إلى الحمرة، وتلك كلها من علامات الصحة الجيدة!

ولما جاء هذا الراهب إلى فيرونا نزل ضيفاً على آل مونتيكي. ومنذ ذلك الحين أخذ يكثر من التردد على قصرهم، وكان يعجبهم فيه مزاجه اللطيف وحسن كلامه وأسلوبه ومزاجه المهذب الخفيف.

وكان له في دير الآباء الفرنسيسكان صيدلية، فيلجأ إليه الناس عندما لا تنفعهم الصلوات للقديسين لشفائهم من مختلف الأمراض، وقد كان الكثير من عقاقيره يساعد مع الصلوات على تبديد آلام قاصديه من المرضى، وبخاصة من كانوا شديدي الثقة به وبما يصف من أدوية وعقاقير.

لم يكن الأب لورنزو ساحراً، بل كان راهباً يعتقد أن الناس يكفيهم عقاباً إنهم بشر، وأنه يجب دائماً التخلص من العذاب والآلام، ومن أوجب واجباته أن يقوم بهذه المهمة إلى أقصى حد.

فلما جاء إلى القصر أخبره السيد مونتيكي – وهو يبتسم – بما حدث بينه وبين زوجته من خلاف على رش وجه الطفل بالنبيذ، فقال الأب:

– إذا لم تكن النية سيئة، فلا بأس برش وجه الطفل بشيء من النبيذ.

ثم أضاف إلى ذلك قوله:

– على أنه يجب الحرص على أن يبقى فم الطفل بعد ذلك مغلقاً، وقد قالت لي والدتي التي كانت فاضلة ومحترمة إني لما كنت طفلا كنت أسبب لها انزعاجاً لأني تعودت أن أبقى فمي مفتوحاً وذلك أمر خطر لأنه يعرض الأطفال لأن تدخل الحشرات في أفواههم.

وكان هذا الحديث يجري في غرفة الوالدة وحرارة شمس يونيو يلهب الجو، فقال السيد مونتيكي:

– إننا نكاد نختنق هنا لشدة الحر.

فقالت زوجته: هذا لا يهم، إني أمرت بإغلاق النافذة فيجب أن تبقى كذلك".

فرد عليها قائلاً: "أن هذه الحرارة قد تؤذي الطفل".

فقالت محتدة: "هكذا أمرت، وهكذا يجب أن يكون".

ورأى السيد مونتيكي إلا فائدة من إطالة النقاش مع زوجته العنيدة،

فغادر الغرفة وصعد إلى سطح القصر، وأخذ يسرح الطرف في مناظر المدينة والجبال المجاورة البديعة.

لم تكن السيدة مونتيكي كثيرة الاهتمام بولدها. ولا تعيره أية عناية خاصة، أما زوجها فكان على عكس ذلك يعني بالطفل كل كان بعض الناس ينتقدون هذا عن خطأ، إذ ليس أشرف من الحب وخدمة الحب".

وكان الوالد يزور ولده كثيراً، ويداعبه في أغلب الأحيان، ولما رآه أول مرة وهو عار قال مفاخراً: "هذا نبيل صغير سيكون شجاعاً مقداماً في خدمة الحب، وهذا صنيع شريف لمن يعرف أن يتقنه، وإن كان بعض الناس ينتقدون هذا عن خطأ، إذ ليس أشرف من الحب وخدمة الحب".

وقد أمر الوالد – حسب قواعد الصحة المعمول بها في ذلك الوقت - أن يبعد ولده عن الماء والنار حتى يبلغ السابعة من عمره، وكان الناس في تلك الأيام يعتقدون أن الماء والنار عنصران مضران، لأن الماء هو العقاب الذي أنزله الله بالبشر الخاطئين يوم أرسل عليهم الطوفان، ولأن النار أداة التعذيب في الجحيم، ولذلك بذل الخدم وأهل الدار كل جهودهم وعنايتهم ليمنعوا الطفل من الاقتراب من المشاعل وقناديل الزيت التي كانت تضاء ليلاً في القصر، كما أنهم حرصوا على ألا يبلل جسمه، بل كانوا إذا تجمعت مفرزات الجسم وكونت على جلده قشرة قذرة، اكتفوا بفرك الجلد حتى تسقط تلك القشرة، وذلك طبقاً لعادات القوم في ذلك العهد، وكانوا فوق ذلك يفركون جسمه كل يوم أحد بقطعة قماش مبللة بماء ممزوج بعصير بعض رياحين وزهور عطرية.

وبهذه الطريقة عاش الطفل حتى بلغ السابعة من عمره دون أن يمسه مرض.

وحينئذ أخذ الوالد يهتم بتربية ولده حسب العادات الدارجة في أيامه، فكان يوصيه بأن يكون مؤدباً مهذباً لطيف الكلام والإشارة، بشوش الوجه مطيعاً، وعلمه كيف يتحدث في رقة وأدب، وكيف يقابل الناس ويحترمهم، وعلى هذا نشأ الغلام حكيماً تقياً سهل القياد، وبدت عليه منذ الصغر دلائل تؤكد أنه سيكون نبيلاً صالحاً محترماً بين الناس.

وكذلك علمه أبوه الصلاة وترتيل الأناشيد الدينية، كما علمه السباحة وركوب الخيل، وعوده الجميع ألا يخاف من الظلام والظلال، وأن يتحمل الأمطار دون تذمر وأن يكون مقداماً جسوراً.

وهكذا تعود الطفل أن يثق بنفسه، وأن يحلم بالمغامرات، ويتجلى من صفاته خاصة: العزم الثابت، والإباء.

وقد حدث يوماً أنه ضرب فلم يبك فقالت المرضع:

– أن السيد روميو عالي النفس، لا يرضى أن يبكي.

وهنا قال روميو: "حينما أكبر، لن يجرؤ على أن يضربني، على إني لم أبك اليوم حتى لا يعلم أحد بأنك ضربتني".

فأثنت عليه المرضع وزادت في تشجيعه.

كان والدا روميو لا يعرفان القراءة لأنهما من طبقة النبلاء، فكان على الولد أن ينشأ مثلهما، إلا أنهما أرادا أن يعلماه بعض شئون الحياة العامة،

وكان أبوه قد تعود أن يكلف أحد الرهبان أن يقرأ عليه تاريخ القديسين ومغامرات أبطال العصور الغابرة، وتمنى أن يهتم ابنه مثله بأهم أحداث الدنيا وعجائبها، فاتفق مع الأب لورنزو العارف بجميع ضروب العلم على أن يأتي إلى القصر مرتين كل أسبوع ليتولى تعليم روميو، وخصص في القصر غرفة بعيدة عن الضجة لتكون مقر تلك الدروس.

وعلم الأب لورنزو الغلام عجائب الطبيعة، فشرح له ما في الهند والحبشة من أشياء غريبة مدهشة، ومما علمه إياه أن الشمس تدور حول الأرض في يوم وليلة، ولم يكتف الأب لورنزو بأن يحشو ذاكرة روميو بأعاجيب الطبيعة ومدهشات الوقائع والحوادث فقط بل عني كذلك بأن يصقل عقله، فأوصاه بألا يلوم أو ينقذ الناس لئلا يلوموه وينتقدوه عن أيضاً، وقال له يوماً:

– إذا أردت أن تعيش عيشة هنيئة، فاذكر دائماً أنه يجب ألا تستسلم للهموم، واعلم أن من الخطل وضعف العقل أن تدلي بنصائح إلى من لا يتوقعونها منك، وأن الشيطان يسره أن يسمع الناس يتحدثون مع أولئك المخبولين الذين يدعون إنهم يفكرون في شئون هذا العالم ويدرسون أحواله ويستخرجون غيره، وهذا ما تعلمناه من الكتب المقدسة، ويجب احترام الله وإكرامه دون الحلف باسمه أو الكذب عليه، كما يجب مساعدة الفقير والابتعاد عن النفاق.

ولم يكن الغلام روميو يقضي كل وقته في العمل، بل كانت والدته برغم فظاظتها وقسوتها تأذن له في التريض والتسلي واللعب كلما أرضاها سلوكه أو كلما شهد الأب لورنزو بأنه راض عنه، فكان روميو يلاعب رفاقه من

الصبيان، ويستقبل المهرجين الذين يفدون إلى القصر فيتسلى بألعابهم وألعاب قرودهم وكلابهم وفكاهاتهم، كما كان يصغي لأقوال الشعراء المغنين الجوالين الذين يقصون مغامرات أبطال العصور الماضية، وشد ما كان الحماس يهزه حين يفكر في أنه هو أيضاً سوف يستطيع متى تقدمت سنه أن يهز السيف ويصادم الدروع ويبقر بطون الخيل، ويشق صدور الأعداء.

نعم لم تكن السيدة مونتيكي تسمح بدخول القصر لأولئك الشعراء الجوالين، لأنها كان تراهم أوباشاً متشردين طوال الألسنة، يعرفون كل شيء، ويقولون كل شيء، ويتجولون في أنحاء العالم ويكشفون النقاب عن أسرار الناس، ولكنها مع ذلك كانت تقبل فيهم شفاعة ولدها روميو، وكان أبوه يأمر بأن يوزع عليهم كثير من النبيذ لأنه كان رجلاً رقيق القلب والشعور.

ولما بلغ روميو عامه الحادي عشر، دفع به والده إلى فارس مسن خبير يعلم الفروسية واستعمال السلاح، ليجعل منه فارساً قوي الشكيمة، مرهوب النزال.

وعز على روميو بادئ الأمر أن يفارق الموضعين اللتين كانتا ترعيانه منذ ميلاده، وذرفتا هما أيضاً كثيراً من الدموع لهذا الفراق المؤلم.

وحينما تشبث بهما وضرب الأرض برجليه مؤكداً أنه سينتقم لنفسه، صفعته والدته بشدة، وهددته بأن تعامله معاملة أقسى وأشد إذا لم يخضع لأوامر والديه لأن سلطتهما مستمدة من الله.

وخضع الغلام لإرادة والديه، ومضى مع الفارس بونافنتي إلى غرفة السلاح، والحق أن روميو طالما تمنى منذ سنين عديدة أن يؤذن له في دخول

هذه الغرفة حيث كانوا يحفظون أسلحة أجداده منذ مئات السنين.

وأخذ الفارس العجوز يعلمه أسماء الأسلحة، ثم شرح له طرق استعمالها، وكان الغلام فرحاً مسروراً إلى حد بعيد.

وفي أحد الأيام نظر الفارس بونافنتي إلى روميو وقال له:

– ها قد بلغت الآن يا سيدي السن التي يجب أن تتعلم فيها قواعد الصيد والقنص بوساطة الكلاب، فاعتبر هذا اليوم حدثاً تاريخياً في حياتك.

فانتفخت أوداج الغلام وانتصبت قامته وازدهى بنفسه، لأنه كان مثل كل رجال عهده يحب الحية والقنص، وبعد حياة الحيوانات والوحوش لا أهمية لها.

وطالما تسلى بلعبة "نفخ الضفادع" الشائعة بين الصبيان في ذلك العصر، وذلك بأن يملك ضفدعة، ويدخل في مؤخرتها عوداً رفيعاً، ثم يمسك طرفه الظاهر ويدنيها من الماء، ليضحك من محاولاتها الفاشلة لنزول إليه والتخلص من العود.

وكان يتلهى أحياناً بصيد الزنابير وما إليها ثم يربطها بخيوط يسير وطرفها في يده، وهي تحاول أن تطير فلا تستطيع.

وطالما دهن بعض العيدان بمادة لزجة، ثم يلقيها على الأرض لتقع عليها العصافير وما إليها فتلتصق بها أرجلها ويصطادها بهذه الوسيلة.

كل هذه كانت ألعاباً وتسليات ببطة يمارسها في الماضي، أما الآن فقد دخل في طور جديد من الحياة، وداخله الشعور بأنه لم يعد غلاماً صغيراً،

فصار يتلقى تعليمات معلمه وإرشاداته في انتباه وتيقظ، ويعامله بكل احترام.

وبدأ الأستاذ بأن لقنه بعض ملاحظات وقواعد عامة عن أنواع الصيد كبيرها وصغيرها، وشرح له كيف يهاجم الطريدة، وكيف تدافع الفريدة عن نفسها، وبسط له خلال ذلك إحدى الحيل التي يلجأ إليها الثعلب لصيد فرائسه او للنجاة من صائديه، وذلك بأن يرتمي على الأرض ثم يتظاهر بأنه مات ويفتح فاه ويدلي لسانه، فيمر به الصيادون مر الكرام دون أن يمسوه بأذى، وتجوز حيلته كذلك على بعض الطير فتقع على جثته وهي تحبها غنيمة باردة، ثم لا تكاد تهم بأعمال مناقيرها في جثته الممددة الهامدة حتى تنعكس الآية ويأخذها هو بغتة من حيث لا تشعر.

ولقنه معلمه بيانات كثيرة غريبة عن الذنب فقال له: "إن هذا الحيوان يوجد بكثرة في إيطاليا، وكثيراً ما يتعذر عليه إيجاد فريسة يلتهمها، فيتغذى بالشراب والهواء، ومن عادته حين يعوي أن يرفع إحدى قدميه ويضعها أمام فمه لكي يزدوج العواء ويتوهم الرعاة أن هناك عدداً كبيراً من الذئاب، فيأخذهم الرعب ويسهل عليه الانقضاض على ما معهم من ماشية وحملان".

وعلم روميو من معلمه أن بعض الأسود التي تقطن غابات أفريقية وآجامها، تنام فاتحة عيونها ولا يمكن أخذها غيلة، وإذا أراد أسد منها أن يقتنص طريدة، فإنه يرسم بذيله على الأرض دائرة واسعة، ثم يجم في موضع منها، مطمئناً إلى أن أي حيوان دخل إلى هذه الدائرة السحرية لن يستطيع أن يخرج منها.

وسأل التلميذ أستاذه يوماً: "ما أحسن وسيلة لصيد الأرنب؟" فأجابه المعلم بقوله: "يرمي بسهم يوضع في مؤخرته شيء ثقيل".

فسأله: "وكيف تصاد العصافير؟".

فقال: "تغطي جوادك بفروع من الأشجار، ثم تتقدم في بطء وقوسك على كتفك خلف هذه الخميلة المتحركة".

ثم قال المعلم: "إن الأيل لا يمكن أن تصيبه حمى. ولذلك يأكل بعض الناس من لحمه كل يوم قبل العشاء، وإذا مرض أيل فإنه يداوي مرضه بابتلاع أحد الثعابين، وسرعان ما يشفى ويسترد نشاطه وحيويته، ولذلك تعمر الأيائل في البلاد التي تكثر فيها الثعابين.

وكان روميو يصغي بكل جوارحه إلى كل هذه البيانات والمعلومات، وكان في دخيلة نفسه يعجب بالرجال المسنين الذين تزينهم هذه المعارف مثل أستاذه بونافنتي ويستطيعون أن يفيدوا الناس بها.

روميو يصطاد

فرغ الاستاذ بوفانتي من تلقين روميو تلميذه مبادئ الصيد وقواعده، ورغب هذا في تطبيق العلم على العمل، فاستجاب أستاذه لرغبته، واصطحبه في رحلة لصيد الزرازير.

واصطاد الأستاذ وتلميذه كثيراً من الزرازير، و كان بعضها ما زال حياً سليماً، فربطا أرجلها بخيوط طويلة مدهونة بمادة الدبق اللزجة، لم أرخيا لها العنان فطارت واختلطت بأسراب الزرازير الطليقة، وسرعان ما لصقت أرجل

كثير من هذه بتلك الخيوط، فاصطادها هي الأخرى بهذه الوسيلة في يسر وسهولة.

ولما صار في استطاعة روميو أن يمتطي جواده ويركضه وراء الفريسة التي يريد صيدها، أهدى إليه أبوه فهداً صغيراً أرقط، يبدو جسمه ذو البقع السوداء و كأن ليس به عظام لشدة ليونته، ثم ألبس هذا الفهد دثاراً أزرق مطرزاً، وأحيط عنقه بقلادة من اللآلئ يتوسطها جرس من الذهب، فكان روميو إذا خرج للصيد، أردف هذا الفهد خلفه على جواده، ثم يطلقه على ما يلوح له من الأرانب وغيرها، فسرعان ما ينقض عليها انقضاض الصاعقة، ثم يحملها بين أسنانه، ويعود بها إلى روميو.

وبعد تجارب عدة وتمرينات طويلة حكم الأستاذ بوفانتي بأن تلميذه صار أهلاً لأن يعني بتربية الصقور لأجل الصيد.

وكان السيد مونتيكي يقتني صقوراً نادره من هذا النوع، جلبت من ألمانيا حيث أخذت صغيرة من أعشاشها في الصخور على شاطئ البحار الباردة، وأخذوا في تدريبها على ما يلقي إليها من الأوامر بوساطة الصغير والإشارات والأصوات، فاختار الأستاذ من بين هذه الصقور ألطفها هيئة، وأخفها حركة وطيراناً، واختارها من الإناث، إذ هي أقرب إلى الطاعة والانقياد من ذكور الصقور المتعجرفة، وكان في ذيلها ثلاث عشرة ريشة مما يؤكد جودة نوعها، ثم قال لروميو "لا يكفي أن يستفيد الإنسان من الأشياء التي تحيط به في هذا العالم بل يجب أن يعرف أصولها"، ثم مضى يعلمه كيف يوقف أنثى الصقر المختارة هذه فوق راحته، وكيف يدربها على مطاردة الفرائس التي

يحاول اصطيادها، كما لقنه كثيراً من الحيل النافعة في صيد الطير.

وكان من بين تلك الحيل اصطناع عصفور من قماش أحمر، وتزويده بجناحي حجل أو بطة، ثم توضع عليه قطعة لحم صغيرة مما يأكل الصقر، على ألا يسمح له بأن يلتهمها إلا بعد أن يعود إلى سيده حاملاً الطريدة المطلوبة.

وفي ذات يوم، التفت الأستاذ إلى تلميذه وقال له:

- سنصطاد اليوم من دون استعمال هذه الخدعة، بل نطلق حجلاً مجروحاً يستطيع الصقر أن ينقض عليه في سهولة، ثم تهجم أنت في الحال لتمنع الصقر من تمزيق الحجل.

ثم أعاد هذه التجربة على أرنب كسرا إحدى فيه الأماميتين لكيلا يستطيع أن يمضي بعيداً.

ثم وضعا جلد أرنب على ديك حي أطلقاه في حقل، فأخذ الصقر الذي كان روميو ممسكاً به يصفق بجناحيه ويرتفع لكي يطير، وبعد أن خلعا عنه دثاره أطلقه روميو فأنفق على جلد الأرنب وانتزعه وأتى به إلى سيده الذي أعطاه رأس الديك وكبده جزاء له.

وكان الأستاذ عندما يتكلم عن الصيد بواسطة الصقور يتحدث بلهجة الجد والعظمة.

وكان يقول لتلميذه: "إن الصقر مثل السيف علامة مميزة لابد منها للنبلاء، وأن شرائع الفروسية تحظر التخلي عن الصقر فإذا هجم عليك

لصوص يوماً وأنت تصطاد فيجب أن تطلق سراح الصقر في الحال لأن الصقر نبيل لا يجوز أن يقع في الأسر".

ثم ختم الأستاذ درسه بأن لقن تلميذه الضراعة التي يجب على كل صياد طيب أن يوجهها إلى النسور لكي تحترم هذه الصقور في تأدية واجباتها، وهذه الضراعة هي: "أيتها النسور.. أستحلفك بالإله الحق المقدس، وبالعذراء الطاهرة مريم، وبطبقات الملائكة التسع، وبالأنبياء والقديسين، وبالاثني عشر رسولاً، أن تتركي المجال حراً لصقورنا، وألا تتعرضي لها بأي ضرر".

النظرة الأولى

في غضون سنة ١٢٩٣، وكان روميو قد بلغ الحادية عشرة من عمره، طغت على مدينة فيرونا موجة من الفرح العظيم.

ذلك أن القوم مع عزمهم على إقامة مهرجان للفروسية في ميادين فيرونا القديمة.

وقبل قيام المباريات بخمسة عشر يوماً، طاف المنادون بجميع أنحاء المدينة على مشون جيادهم، نافخين في الأبواق إعلاناً عن المباريات التي يتضمنها المهرجان.

وكانت مباريات الفروسية تلذ لأهل المدينة كثيراً، لما فيها من ضروب الخفة في الحركة وإظهار قوة الأجسام الرائعة التي تبهر الأنظار وتهز النفوس، وإذا كان العارفون تهزهم حركات هز الرماح، فإن السيدات كان يطربهن ويثير إعجابهن أن يرفع أحد الشبان من الفرسان الجزء الذي كان يغطى

وجهه من الخوذة، فيظهر وجهه الجميل وتبدو عليه آثار ضربة شديدة، دامية أحياناً.

ونصبت في جميع أنحاء المدينة خيام وسرادقات عديدة، وتدلت من جميع النوافذ والطاقات على طول الشوارع المؤدية إلى ميادين الألعاب القائمة وسط المدينة ستائر وأعلام وكثير من قطع القماش المزخرفة المزركشة، وقد رسم عليها شعار المدينة وهو صليب ذهبي على رقعة زرقاء.

وامتلأت الشوارع الضيقة بسياس يقودون جياداً مطهية مسرجه، وحراس يختالون بأسلحتهم، ومنادين يصك الأسماع صليل أجراسهم، ومتسولين من ذوي العاهات جاءوا إلى المدينة من شتى الأنحاء يحدوهم الأمل في الحصول على إحسان ذوي اليسار والقلوب الرقيقة، إلى طوائف لا يحصى عددها من الرهبان جامعي الإعانات للأديرة، والبهلوانات والحواة الذين يعرضون ألعابهم، والشعراء والمحدثين الجوالين، وغيرهم من الباعة والمرتزقة.

ومدت فوق ميدان الألعاب قطع عريضة من القماش الأبيض لتحمي المتبارين والنظارة من حرارة الشمس.

وكان النظارة يرون في مقصورة مزدانة بشارات سلاح آل مونتيكي، زعيم هذه الأسرة وزوجته وهما يرتديان ثياباً فاخرة ثمينة، كم كانوا يرون أيضاً في مقصورة أخرى قريبة لا تقل عن هذه زينة ونفاسة أسرة آل كابلليتي يحيط بها أنصارها وأصدقاؤها.

وبينما كان جمهور المهرجين والمشتركين في المباراة يرفعون أصواتاً مجلجلة في الفضاء، كان الغلام روميو مونتيكي يمص شيئاً من الحلوى أتى له به أهله

لكي يجلس ساكناً ويسرح طرفه في المشهد الذي حوله والميدان الزاخر بجموع تروح وتجيء، وفي المتبارين المصطفين على الجانبين فوق خيول مطهمة تزينها حتى الحوافر أغطية مزركشة، وهم ساكنون لا يتحركون كأنهم تماثيل من الحجر، وقد وضع كل منهم قدميه في الركاب، وغطيت أصابعهم بقطع من الحديد، وغطت صدورهم دروع وتروس معدنية جعلتهم يبدون وكأنهم حيوانات عجيبة عظيمة الهياكل، وعلى رءوسهم خوذات تعلو كل خوذة منها ريشة كبيرة من ريش النعام.

وكان روميو مبهوراً دهشاً لما يراه من اهتمام الناس، ومما يلاحظه من دلائل الغنى والبذخ في ملابسهم، وقوة أبدان من سيشتركون في المباراة وقوة خيولهم وحسن منظرها الرائع ولمعان أسلحتهم البراقة.

ثم التفت روميو إلى أبيه وقال له:

– انظر يا أبي.. ما أجمل هذه الطفلة الصغيرة هناك في المقصورة التي بالقرب منا، هل تراها جيداً؟

وكانت تلك الطفلة لا يزيد عمرها على خمس سنوات، ذات شعر مجعد طويل يتدلى على كتفيها، وعينين سوداوين صافيتين، ووجهها في نصاعة زهر الياسمين ونضرته، يزيد في روعته فمها الأحمر الصغير.

أما المقصورة التي كانت جالسة فيها كانت مقصورة آل كابللينتي، حيث بدا زعيم تلك الأسرة وقد ارتدى – برغم حرارة الجو – معطفاً سميكاً كبيراً أحمر عليه رسوم أزهار خضراء، وجنس منتفخ الأوداج، مفاخراً بوجاهته وثرائه وكثرة أنصاره، وكان ليس بين الحاضرين من يعدله أو يرتفع إلى مقامه.

وكانت السيدة مونتيكي تجلس بجانب زوجها، بادية المرح والسعادة، وقد شغلها تأمل ما حولها من سماع سؤال روميو لأبيه، ولم يشأ السيد مونتيكي أن يرد على سؤال روميو، وحاول أن يشغله بالتطلع إلى شيء آخر، ولكن سحر الطفلة الجميلة كان قد فعل في قلبه ولبه فعاد يسأل أباه في لهفة وفرح: "من هي هذه الطفلة الجميلة يا أبي؟.. انظر إليها.. كم هي جميلة رائعة!

وسمعته والدته في هذه المرة، فتولت هي الإجابة عن سؤاله وقالت له في خشونة وجفاء:

– اسكت يا ولد، اجلس هادئاً

ساكناً.. إننا لم نجيء بك إلى هنا لتشاهد المتفرجين بل لترى المباراة والمتبارين، وتمتع نظرك بما يقومون به من ضروب الفروسية، فانظر والزم الصمت!

ثم أخذ سائسي الخيول والخدم يخلون الطريق للمنافسين بدفع الجماهير التي كانت لا تزال تتدفق وتتزاحم برغم امتلاء المقاعد كلها بالنظارة.

وأخيراً، بدأ فارس يلبس ثوباً واسعاً ثميناً عليه رسم شعار فيرونا، وأخذ ينفخ في بوق طويل فضي، ثم رفع عقيرته وصاح بالحاضرين أن يلزموا الصمت.

وسكت النظارة ثم بدأت المنافسة بين المتبارين.

ورأى النظارة فارسين حاملين رمحين يتنازلان وهما يسيران خبياً، وكانت أغطية الجوادين ثمينة فاخرة مختلفة الألوان متنوعة الأشكال.

وحدث حين اقترب أحد الجوادين من الآخر، أن مضيا في اندفاعهما فكانت بينهما صدمة قوية، وأصاب رمح أحد الفارسين درع الآخر، وأصاب رمح هذا غطاء ذراع ذاك، وعلت ضجة وجلبة طويلتان من جميع صفوف النظارة، وكان روميو منشرح الصدر بادي الغبطة.

ثم رجع الفارسان إلى أطراف الساحة، وأركضا جواديهما إلى أن التقيا وجهاً لوجه، ثم أخذا يتبارزان، وكان أحدهما محافظاً كل المحافظة على قواعد المبارزة، كما بدا أنه شديد اليقظة والحذر، أما الآخر فكان أكبر همه منصرفاً إلى لفت أنظار السيدات إليه، واستثارة إعجابهن به، وهكذا لم يمض قليل حتى ضربه خصمه برمحه على وجهه فهوى على الأرض والدم يقطر من فمه وأذنيه وسقطت أسنانه من فمه.

وعلا هتاف النظارة يحيون هذا الانتصار، وعزفت الموسيقى، ونفخ في الأبواق، بينما أخذ الفارس الظافر يرد تحية النظارة بحركات خاصة يأتيها برمحه.

وتلت هذه المباراة مباريات أخرى عديدة، وصار المتبارون يشكون خيولهم بالمهاميز ويتشاتمون، ويصف بعضهم بعضاً بالخور والنذالة ويحثون جيادهم لكي تهجم في وحشية.

وبلغ عدد النبلاء الذين اشتركوا في هذه المصادمات عشرين فارساً جرح منهم ثمانية وسقطوا عن خيولهم، وهلك جوادان أخرجوهما من الميدان.

ولم يمت في هذا الصدام إلا اثنان، سقط أولهما – وهو أحد النبلاء – متأثراً بطعنة رمح شطرت خوذته شطرين ونفذت إلى رأسه فسالت الدماء

على وجهه، ودار حول سرجه ثم سقط إلى الوراء!. أما القتيل الآخر فكان أحد المنادين، هجم عليه جواد في أثناء الزحام ورفسه بقوة في موضع حساس من جسمه، فتلوى المسكين وسقط على الأرض يصيح من شدة الألم، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يخرجوه من الميدان.

على أن هذين الحادثين لم يؤثرا في رونق الحفلة، لأن القوم في ذلك العهد كانوا يعيشون والموت إلى جانبهم فكانوا يعدونه دائماً قريب الاحتمال! بسبب السهم أو الطاعون أو ضربات الخصوم. وكان الناس يحسبون أن الذين يموتون في مثل هذه الظروف يسبقون غيرهم إلى الجنة.

وفي ختام الصدام يقدم الفارس الذي أعلن حكم المباراة أنه هو المنتصر نحو مقصورة حاكم المدينة "البرتو ديللا سكالا" في احتفال عظيم، وعندئذ تعالت الهتافات المتواصلة الحماسية وجلبة الفرح السرور والتصفيق الشديد المتواصل.

على أن الغلام روميو، مع شديد إعجابه بما شهد من ضروب الألعاب الباهرة، كان كل تفكيره متجهاً نحو الطفلة الجميلة، فعاد إلى سؤال أبيه من جديد: "من تكون هذه الطفلة؟".

وهنا شده أبوه من كتفيه ثم ركله بقدمه ركلة عنيفة وقال له:

– ألم أمرك بالسكوت؟.. إياك أن تعود لمثل هذا السؤال، ولتمح صورة هذه الطفلة من مخيلتك فهي من آل كابلليتي، ويجب ألا نهتم بها ولو كانت أجمل من أجمل القديسات في الجنة.

مضت على ذلك الحادث ثلاثة أعوام، و كان روميو مونتيكي قد دخل

في السنة الرابعة عشرة من عمره، وقد برع إلى حد كبير في قنص الطيور وهي تسبح في الفضاء، وصار أهلاً لأن يحمل الصقر على كفه.

وبدأ الشاب منذ عيد الفصح في سنة ١٢٩٦ يحمل على كفه وهو جذلان طائرًا على رأسه غطاء من الجلد مطرز بالذهب وتزينه لآلئ، وقد علق بساقيه جرسان صغيران من الذهب عليهما شعار ملاح سيده، وذلك لكي يمكن الاعتداء إليه إذا ضل بين الأحراش والأعشاب.

وكان روميو في ذلك الوقت قد تعلم كيف يعدو طويلاً على ظهر جواده، وكيف يتشبث بمقعده فوقه وكأنما التصق به، فكان الناظر إليه وهو يعدو بجواده يكاد يحسبه هو والجواد والسلاح قطعة واحدة، وكان الفلاحون إذا رأوه ماراً سددوا إليه أنظارهم يمتعونها بشبابه الغض ونبل طلعته وعرض كتفيه ورشاقة قده.

وكان حين يمر في سهل أو غابة أو كومة ويرى طائراً يحلق في الفضاء هناك، يبادر بالوقوف، ثم يطلق صقره مشيراً له إلى ذلك الطائر، فسرعان ما ينطلق الصقر كالسهم، ويمضي محلقاً مطارداً ذلك الطائر الى أن يمعنا في الطبقات العالية من الجو، ولا يرى الناظر إليهما سوى نقطتين سوداوين، تقتربان حيناً، وتبتعدان حيناً، وقد تختفي إحداهما أو كلتاهما في زرقة السماء، ثم لا تلبث إحداهما أن تبدو أكثر وضوحاً ويزداد حجمها كلما اقتربت من الأرض، وأخيراً يتبين أنها الصقر الذي أطلقه روميو، وقد عاد ممسكاً بفريسته وهي ما زالت تنتفض من أثر الصدام الذي حدث بينهما في الجو.

على أنه كان يوجد أصعب من هذا الضرب من الصيد وأخطر منه

وأنبل، ألا وهو صيد الذئاب في السهول في فصل الشتاء، أو صيد الدببة في الجبال بواسطة الحراب.

ثم أذن السيد مونتيكي لولده روميو في أن يستخدم كلاب الصيد التي كانت تضمها حظيرة واسعة مغلقة تحميها ألواح مدببة، وكان بينها كلاب إسبانية ذات شعر كالحرير، وكلاب سلوقية تسبق الغزلان وتظهر ضلوعها من تحت جلودها و تحمل أجسامها سيقان عالية قوية كأنها أعمدة من المعدن، وكلاب حراسة شرسة ذات صوت عميق، وكلاب أخرى للحراسة أيضاً تعودت أن تقاوم الحيوانات المفترسة، وكلاب أخرى بريطانية ذات آذان طويلة وعليها بقع سوداء وأخرى شقراء ولها صدور قوية وأصوات صاخبة، وتمتاز بقوة شم خارقة تهتدي بها إلى آثار الفرائس التي تطاردها في شعاب الطرق.

وكان روميو وأستاذه في فن الصيد يبكران في الصباح قبل أن تطلع الشمس، وينطلقان وهما ينفخان في البوق، وكان الشاب يعدو على جواده في سرعة عائلة يدعو إليها هوس الشباب، وتسير وراءه جميع الكلاب مسرورة بهذا الضرب من اللعب بعضها يقاتل بعضاً!، فإذا كان وقت الظهيرة استراح الصيادان في ظل شجرة، حيث يأكلان تفاحاً بويا، ويشويان على نار خشب جاف إحدى الطرائد، ويرميان فضلاتها للكلاب.

وعند المساء يعودان برغم الحر أو البرد القارس وبرغم برق العواصف التي تكسر أشجار الصنوبر بالقرب منهما.

وهكذا يرجعان عند أول انسدال الظلام سائرين في بطء وتثاقل من

شدة التعب، والغبار يغطي جسميهما حتى الوجهين، وفي شعرهما بعض أشواك انغرزت فيه، فإذا وصل روميو إلى سريره ارتمى عليه وغط في نوم عميق حتى صباح اليوم التالي.

الفصل الثاني

الصلح بين العدوين

جولييت في النهر

استطاعت التمرينات الرياضية أن تحول روميو من غلام رخو إلى شاب قوي الأعصاب والعضلات ذي بأس شديد ونفس حازمة وثابة، وأخذت تصرفاته تتسم بالتمرد والصلابة.

وكان من يراه في الكنيسة راكعاً يصلي في خشوع واستكانة، لا يتصور أن هذا الشاب الهادئ الطبع يمكن أن يكون ثائراً متمرداً.

والواقع أن روميو كان قد بدأ يثور ضد استبداد أمه وطغيانها في القصر، وكانت هي تصفعه على وجهه في شدة صفعات تهزه وتقذف به على الأرض.

بيد أن أباه لم يكن يرضى عن تلك القسوة من زوجته. إذ كان يحب روميو ويعطف عليه، وكان يلذ له وهو يتمشى على سطح القصر أن يتكئ على كتفي ولده متأملاً علامات الحزم التي كانت تظهر على وجهه، وهكذا تعود روميو أن يعبر أباه صديقاً له وموضع ثقته.

وكان لهم جار نبيل اسمه "شافنتي" له ولد يصغر روميو بسنة واحدة ويماثله في الأخلاق والعادات، واسمه "مركوتشيو"، فتوثقت عرى الألفة والمحبة بين الشابين، وراحا يتنافسان في مختلف الألعاب الرياضية كرمي السهام والنشاب والمقلاع، ويخرجان إلى المروج حول فيرونا حيث يتسابقان على

ظهور الثيران بعد أن يهيج كل منهما ثوره ويركضه بأقصى قوته. غير عابثين بما يصيبهما من جراء سقوطهما على الأرض خلال ذلك.

وفي كثير من الأحيان، كانا يرميان في نهر أديجي شباكاً لصيد السمك، ويتركها إلى اليوم التالي حيث يأخذان ما تجمع فيها من أنواعه المختلفة، كما كانا يذهبان إلى الجبال المجاورة لصيد الذئاب والثعالب وأنواع الطير الجبلية، وكان والداهما يرسلان معهما بعض الخدم والأعوان ليكونوا في خدمتهما وحراستهما خلال الرحلة.

وكان روميو يحب رفيقه مركوتشيو محبة شديدة، لكنه في الوقت نفسه كان بحكم ثراء والديه وتربيته الخاصة، يملي إرادته عليه دائماً، ويحسده على ما يستطيع ممارسته دونه من ضروب اللهو والتسلية.

وكثيراً ما تخاصم الشابان لأسباب تافهة، لكن خصامهما لم يكن يستمر أكثر من يوم، ثم يحل محله الوفاق والوداد من جديد، لأن كل واحد منهما يشعر بميل غريزي خفي نحو الآخر، ولا يطيق أن يصير طويلاً على الابتعاد عنه.

كان الشتاء في فيرونا، غير مستحب غالباً بسبب الرياح الشمالية التي تهب عليها وتمر فوق جبال الألب المغطاة بالثلوج، وكذلك كان صيفها كثيراً ما تشتد حرارة الجو فيه إلى درجة تحمل أهلها، والمترفين منهم خاصة، إلى الخروج رجالاً ونساء إلى الخير للاستحمام فيه.

وقد تعود روميو أن يطرح خارج قصر أبيه بقايا الخراف التي يحضرها من مزارعه لذبحها وأكل لحومها، فكانت هذه البقايا تتجمع من قشور

الفاكهة والخضر وبقايا الطيور والبيض المعفن والزبد الفاسد وأمعاء السمك وما إليها، ويتكون من هذا كله تلال متفرقة في مواضع عدة من الشارع، وكان الخدم يلقون على هذه التلال ما يريدون التخلص منه من المياه القذرة وروث الخيل والكلاب وما إليها من القاذورات، فتحتشد فوقها جيوش من الذباب والبعوض، يقل عددها حين تجف تلك التلال وتتجمد تأثراً بما يصل إليها من أشعة الشمس، أما المواضع التي لم تكن أشعة الشمس تصل إليها، فكانت تلك القاذورات تتخمر فيها، وتنتشر منها – عدا الرائحة الكريهة والذباب والبعوض – أفواج من الديدان تزحف هنا وهناك.

وفي يوم من أيام الصيف، خرج روميو إلى النهر للاستحمام يصحبه صديقه مركوتشيو، وفيما هما يسيران على الشاطئ هناك، شاهدا بين المستحمات صبية صغيرة ترتدي قميصاً طويلاً أبيض، التصق بجسمها الغض، ذي اللون الذهبي المائل إلى السمرة، فزاد في فتنتها وملاحتها.

ولم تكن هذه الصبية الحسناء، يزيد عمرها على عشر سنوات، على أنها كانت تحاط بعناية كبيرة ملحوظة من السيدات المستحمات الأخريات، وكلهن يتنافسن في احترامها وإجلالها، مما يدل على أنها سليلة أسرة عريقة ذات ثراء وجاه ومركز رفيع.

وأعجب روميو وصاحبه بمنظرها وهي تستحم في النهر، وتلهو بضرب الماء بعصا قصيرة في يدها فترتفع قطراته، ثم تنحني وتنكمش متظاهرة بالخوف حين يعلو الماء في موضعها بالنهر، ويغطيها حتى عنقها، وهنا تقفز في رشاقة ومرح، فتبدو قامتها الهيفاء في مظهر يخلب الألباب والعيون.

وكان أن انصرف روميو ومركوتشيو بكل اهتمامهما إلى مراقبة تلك الصبية ذات الجمال و الدلال والجلال، فاتخذا لنفسيهما مخبأ خلف بعض الأعشاب المرتفعة، ووقفا من يختلسان النظر إليها أثناء لهوها، ليستمتعا بما تبديه – من حيث لا تشعر بهما – من ضروب الفتنة والإغراء.

وفيما هما مأخوذان بسحر جمالها ورشاقتها وخفتها، سمعا إحدى تابعاتها تهتف بها قائلة:

– حذار يا جولييت، لا تبعدي من هنا لأن الارض كثيرة الأوحال هناك... وأخشى أن تزلق رجلاك.

فعرفا أن اسمها جولييت، وسرهما أنها كانت جريئة لم تعبأ بتحذير هذه التابعة وغيرها ممن معها من الحارسات، فكانت تغافلهن وتمضي في لهوها ومرحها فتغطس في الماء حتى يبلغ ذقنها، وتخوض في الوحل حتى يغطي جسمها كله، ثم تقفز هنا وهناك في خفة الظباء، وضحكاتها الصبيانية البريئة تلعلع في الفضاء.

وهمس مركوتشيو بغتة في أذن روميو قائلاً:

– لقد عرفت الآن من تكون هذه الحسناء اللعوب.

وأرهف روميو سمعه، ونظر الى صاح متسائلاً في لهفة، فواصل هذا كلامه وقال:

– إن إحدى هؤلاء الحارسات اللائي يصحبنها، خادمة عند آل كابلليتي، فهي إذن من فتيات تلك الأسرة.

وسرعان ما اختفى البشر من وجه روميو، وبدا مقطب الجبين، بادي الحسرة والأسف، فقد كان حسب تقاليد أسرته يحمل حقداً شديداً في طيات نفسه لأسرة كابلليتي، منافسة أسرته في فيرونا، من حيث الثراء والجاه وكثرة الأتباع والأنصار، فضلاً عما بين الأسرتين من عداء مستحكم قديم.

ثم مط روميو شفته السفلى وقال:

– صبية من آل كابلليتي؟!.. أتمنى أن يخرج من الماء حيوان مفترس يمزق جسدها وينظف الأرض منها.

ثم استطرد فقال: "لنذهب من هنا.. إن ماء النهر ليبدو قذراً بعد أن دنسته أجسام أولئك الأوغاد".

بلغ روميو السادسة عشرة من عمره، فسعى أبوه لدى السيد البرتو ديللا سكالا، حاكم مدينة فيرونا، حتى عينه وصيفاً له.

وكان السيد البرتو هذا من أسرة "شكالجيري"، وقد تولى حكم المدينة منذ عشرين عاماً، وكان رجلاً طيب القلب، محباً للسلام، غير ذي مطامع، وقد استطاع أن يعقد الصلح مع أهالي بريشيا وبادوا، وأعلن ذلك رسمياً في ميدان السوق خلال ثلاثة أيام بوساطة المنادين والنافخين في الأبواق، ومنذ ذلك العهد عاشت فيرونا في رخاء وسلام، وصار العدل مخيماً على الجميع.

وجرت العادة في ذلك الوقت بأن ينظم الكبراء في سلك حاشيتهم شباناً أقوياء يصيرون بعد بضع سنوات من رجال الحاكم، حيث يتدربون على السلطة ويروضون أنفسهم على الانقياد والطاعة لرؤسائهم وزعمائهم.

وكان روميو شاباً ظريفاً، يتدلى شعر رأسه ضفائر على خديه، ويضع على رأسه غطاء من المخمل الأحمر تعلوه ريشة؛ وكان كيسه دائماً تملؤه النقود، كما كان عريض المنكبين ممشوق القوام، قوي العضلات.

وكانت السيدات الشابات ينظرن إليه في إعجاب وتقدير، ويتحدثن بما امتاز به من القوة والجمال والبراعة في الرياضة.

وكثيرات منهن، كن يتوددن إليه، ويتقربن منه، للاستمتاع باجتلاء طلعته والاستماع لحديثه، ومنهن من كن لا يملكن أنفسهن حينذاك، فيلمسن خديه الناعمين بأيديهن على سبيل الملاطفة والتحبب.

وكذلك كان أكثر النبلاء يبدون له العطف والتشجيع والإعجاب.

أما هو فلم يكن – لطهارة نفسه – يشغل نفسه بالبحث عن أسلوب هذا التحبب والاستلطاف، كان يقوم بعمله خير قيام في نشاط واستقامة، فينفخ في البوق، ويرفع أطراف ثوب سيده من الخلف، ويصحب منادي السلاح، ويحمل أباريق المياه في المآدب، ويقدم الركاب للحاكم حينما يهم بالركوب إلى غير ذلك من الخدمات.

وكان همه الوحيد أن تقترب الساعة التي يستطيع أن يمارس فيها شئون الحياة الخطيرة، فكان يتألم إذ يرى نفسه ليس أكثر من وصيف صغير.

لقاء غير متعمد

كان روميو يصطاد يوماً على شاطئ نهر أديجي، فرأى هناك مهرجاً مسكيناً قد ركع في خشوع ورفع يديه متضرعاً والدموع تنهمر من عينيه،

وإلى جانبه كلب يتلوى من الألم فتقدم روميو وهو يحمل سلاحه حتى وقف أمام المهرج وقال له: ما لك تبكي أيها الرجل؟"

فقال المهرج وهو ينتحب:

- إن كلبي سيموت، إني أشعر بذلك ولن يفيد دواء في خلاصه؛ وقد كان هذا الكلب وسيلة لكسب رزقي، ماذا يحل بي بعد موته؟

وكان إلى جانب الرجل كلب آخر، وعلى كتفه قرد، تخيل إلى روميو أن هذا الكلب الآخر والقرد يشاركان صاحبهما حزنه وقلقه كأنهما شاعران مثله بالمصيبة المقبلة عليهم جميعاً.

وقال روميو للرجل: "أأنت في هذه الجهة منذ عهد بعيد؟".

فقال المهرج بعد أن زفر زفرة أخرى:

– نعم يا سيدي، إني أعيش في هذه المنطقة منذ عدة سنوات، وقد طفت كل المدن الإيطالية التي حول فيرونا، ونمت أحياناً في قصور الأغنياء، وأحياناً أخرى في أكواخ الفقراء، وذقت حلو الحياة ومرها، وكانت هذه الحيوانات – ولاسيما هذا الكلب الذي يفارق الحياة الآن – عدتي ووسيلتي في كسب رزقي ورزق أسرتي.

وفي هذه اللحظة ظهرت فتاة صغيرة كانت تروح وتجيء على شاطئ النهر وتقطف زهوراً ورياحين من بين الأعشاب النابتة هناك. فلما صارت إلى جانب الكلب المحتضر وقفت وقالت:

– ما أتعس حظ هذا الكلب!. إنه يتألم كثيراً!

فقال المهرج باكياً: إني أفقد هنا كل ما أملك وكل أمل لي في الحياة!".

وتململ الكلب المحتضر في موضعه واهتز جسمه ثم همد وانقطعت أنفاسه، فأخذ صاحبه يندبه وينتحب.

فقالت له الفتاة: "لا تعذب نفسك هكذا يا رجل، لا فائدة من كل هذا".

ثم التفتت إلى مرضع كانت يصحبها وقالت لها:

– أعطي هذا المسكين بعض المال.

وكان روميو في الوقت نفسه قد التفت إلى حامل سلاحه وأمره أن يعطي المهرج المسكين بعض المال أيضاً، فسارع التابع إلى تنفيذ أمر سيده.. وابتعد قليلاً وأشار إلى روميو إشارة خفية فأدرك هذا إنه يريد أن يسر إليه شيئاً، فلحق به مسرعاً وسأله عما يريد، فقال التابع:

– هلم نبتعد يا سيدي لئلا يراك أحد بجانب هذه الفتاة؟

فبدت الدهشة في وجه روميو وقال لحامل سلاحه بعد أن اختلس النظر إلى الفتاة:

– إنها تبدو ظريفة خفيفة الدم، فماذا في الوقوف بجانبها؟ فواصل التابع كلامه وقال وهو يتلفت حواليه بادي الاضطراب:

- احذر يا سيدي، لو أن والدتك علمت بأنك اقتربت لحظة من هذه المخلوقة لنقمت عليك طوال الحياة.

فقال روميو: "لماذا؟.. إنك تبالغ ولا شك.. أن كلامك هذا غامض غريب".

فاقترب منه حامل سلاحه وهمس قائلاً:

– إنها من آل كابلليتي!

تجهم وجه روميو وابتعد من ذلك المكان مسرعاً؛ بينما كان المهرج مشغولاً بحفر حفرة صغيرة ليواري فيها فقيده العزيز.

وبعد سكوت طويل، التفت روميو إلى حامل سلاحه وقال له:

– هل من الحكمة أن يتباغض الناس هكذا، حتى دون أن يعرف بعضهم بعضاً؟

فأجابه الرجل قائلاً:

– لو شغل الناس أنفسهم بأن يميزوا الحق من غير الحق في الواجبات المفروضة عليهم لعمت الفوضى العالم، إن رؤساءنا يأمرون، وعلينا أن نطيع دون أن نسألهم بياناً، ولو أنهم سمحوا بأن نناقشهم لما أمكنهم أن يحتفظوا بالسلطان إلا على أيدي أناس مجرمين يسكتون على جرائمهم.

ووقف روميو قليلاً، والتفت وألقى نظرة خاطفة أخيرة على تلك الفتاة وهي تسير مع مرضعها حاملة ما جمعته من الزهور والرياحين، ومضى في طريقه على أثر ذلك صامتاً متفكراً فيما انطوت عليه كلمات حامل سلاحه من أوامر أصحاب السلطان، ووجوب الامتثال لها دون مناقشة ولا جدال.

في قصر آل كابلليتي

كان قصر آل كابلليتي قائماً وسط مدينة فيرونا- بالقرب من ميادينها القديمة، وحوله منازل عتيقة لا يصل إليها الهواء والنور، وكان من أقدم قصور المدينة وأعظمها فقد شيد منذ ثلاثمائة سنة.

وكان آل كابلليتي من أنصار البابوية، مثلهم في ذلك مثل رجال الأكليروس الخاضعين لسلطة البابا، وبعض المحافظين على التقاليد القديمة، والجنود وعامة الشعب، أما بقية أشراف فيرونا والأرستقراطيون القدامى والقضاة والأغنياء والرؤساء العسكريون فكانوا يميلون إلى إمبراطور ألمانيا القوي حاكم البلاد الشمالية.

وكان آل كابلليتي من أعظم العائلات المنتصرة للبابا، ويعد قصرهم خط الدفاع الأول، وهو قصر ضخم تقل فيه النوافذ الخارجية، وقد شيد على طراز قصور العصور الوسطى بحيث يمكن أن يلجأ إليه الفقراء عندما يحدث غزو ويحتمون به، ولهذا أقيمت على جوانب سطحه الفسيح غرف خاصة تتخلل جدرانها الخارجية شقوق ليمكن رصد الأفق منها، كما أقيمت على السطح أيضاً متاريس، وأدوات لقذف الحجارة والرصاص المصهور والقدر المغلي على من يحاول اقتحام القصر، أو الصعود إليه بوساطة الحبال وغيرها للهجوم على من فيه.

وكان في وسط القصر بناء فسيح، به قناطر تقوم عليها المساكن والغرف ومعارض السلاح والتحف وأسلاب المعارك وما إليها من الأشياء الثمينة.

ومن بين تلك الغرف كلها، كانت هناك غرفة واحدة هي التي ربيت فيها

جولييت الابنة الوحيدة للأسرة، بها نافذة خارجية تطل على الجهة الشرقية، وبها كذلك شرفة من الحجر المنحوت، تطل على مساحة تضم عدة منازل منخفضة جداً، فكان الناظر من تلك الشرفة يرى نهر الأديج والسفن والزوارق السابحة فيه، كما يرى سهول لومبارديا بما فيها من زروع منوعة.

أما والدا جولييت فكانا يقيمان بغرفة في الطابق الأول من المبنى الرئيسي بالقصر، تطل على فنائه، وبذلك كان رب القصر يستطيع أن يرى كل حركة فيه.

وكان السيد كابلليتي رب القصر وسيم الطلعة، طويل القامة، كثيف الشعر أسوده، له فم صغير وعينان براقتان تبدو نظراتهما قاسية حيناً وساخرة حيناً آخر، وهو قليل الكلام يتعمد الإيجاز فيه، فكان من ينظر إليه أو يسمعه لا يستطيع أن يتبين حقيقة شعوره وما تنطوي عليه نفسه، وكانت يداه طويلتين قويتين جداً، على أنه في شبابه كان أقوى كثيراً، وما زالت قوته تلك مما يتحدث به كل من عرفوه حينذاك، ولاسيما من النساء، فقد كن يروين عن قوته الخارقة.

روايات أشبه بالأساطير التي تروى عن الأبطال:

وأما السيدة كابلليتي فكانت على عكس زوجها طيبة القلب، مستديرة الجسم، وردية اللون، بادية الصحة، يكاد خداها المكتنزان يحجبان عينيها، وكانت سعيدة في حياتها، توجه كل اهتمامها إلى اختيار أطايب الطعام والشراب، والاستماع لأناشيد الشعراء المغنين، وشم الروائح العطرية، وانتقاء أغلى الملابس وأفخمها.

على أن طيبتها لم تكن نتيجة إيمان بالفضيلة بل لأنها لم تكن تستطيع أن تؤذي، ولأنها بطبيعتها كانت لا تحب أن ترى حولها وجوهاً عابسة غاضبة أو حزينة متألمة.

وطالما تمنى هذان الزوجان أن يرزقا ولداً ذكراً، ولكن الأقدار لم تنعم عليهما إلا بنعمة واحدة هي جولييت، وقد ربياها بكل عناية، ونشآها نشأة صالحة على أمل أن تتزوج زواجاً سعيداً يصون أملاك الأسرة وسلطانها ويخلد اسمها.

وهكذا كان السيد كابلليتي يعلق آمالاً كباراً على الزوج المنتظر لابنته الوحيدة، لا تقل عما كان يعلق من الآمال على أن تنجب له زوجته ولد يرث قصره وأملاكه ويكون زعيم حزب البابا في فيرونا.

كان والد جولييت قد اختار لها منذ ولادتها مرضعاً طيبة القلب اسمها أوزيبيا.

وكانت مهمتها أن تكون دائماً إلى جوار سرير الطفلة، ولاسيما حينما يشح لبن الأم ولا يكفي لتغذيتها، وقد قامت بهذا الواجب أحسن قيام، وأظهرت من شدة العناية والسرعة في تلبية مطالب الوليدة ليل نهار في حب وإخلاص ملحوظين، ما حمل الوالدان على أن يقررا اختيارها مربية ملازمة لابنتهما في المستقبل.

وكثيراً ما كانت جولييت في السنوات الأولى من عمرها. تدق بقبضها فخذ أوزيبيا وصدرها، وتشد شعرها وثوبها في شدة وعنف، فلا تبدي هذه أي تذمر أو شكوى، بلى تتلقى ذلك بكل ارتياح وسرور.

ولم تكن مطالب جولييت الصغيرة من مرضعها الحنون تنقطع طول اليوم، فهي لا تني تصيح بها لتخبرها بأنها تشعر بالجوع، أو العطش، أو بالحاجة إلى تبديل شيء من الملابس أو الرغبة في نوع من أنواع اللعب واللهو، وما إلى ذلك من مطالب الأطفال. وحدث مرة أن سمعت المرضع الطيبة القلب جولييت وهي تهتف باسمها قائلة:

– أوزيبيا.. أوزيبيا.. تعالي انظري!

ولما خفت إليها، وجدتها تبكي وتنظر إلى خدش بسيط في يدها، فأخذت في تضميده ومواساتها في حنان وهي تقول:

– لا تخافي يا عزيزتي لا تخافي!

وكانت أوزيبيا دائماً تسارع إلى تلبية مطالب جولييت، مهما تكن تافهة، كما كانت تدخر لديها قطعاً كثيرة من الحلوى اللذيذة لتعطيها قطعة منها من حين إلى حين.

وفي بعض الأحيان كانت جولييت تستيقظ في فراشها ليلاً وتنادي مرضعها قائلة:

- أوزيبيا.. أوزيبيا..

فإذا خفت إليها، وسألتها عما تريد؛ قالت لها جولييت في دلال:

– أريد أن أنام في فراشك، لأنه أدفأ من هنا.

وحينئذ كانت أوزيبيا يزايلها الهدوء الذي يغلب عليها، وتجيبها مجندة:

– ماذا تقولين أيتها الوقحة!.. إني أريد أن أستريح وأنام.. هل يجب أن أسهر على كل رغباتك؟

على أنها كانت لا تلبث قليلاً حتى يعاودها الهدوء والحنان، فتربت كتف صغيرتها المحبوبة، وتقول لها:

– تعالي يا عزيزتي، تعالي يا حياتي!

وبقدر ما كانت أوزيبيا تلقي من مضايقات جولييت ومعاكساتها، كانت تزداد حباً لها وعطفاً عليها وإخلاصاً في خدمتها وتسامحاً إزاء هفواتها.

وكثيراً ما حدث أن أتلفت الطفلة في عبثها قطعة من الأثاث، أو حطمت إبريق ماء أو مزقت قطعة من الدانتلا وما إليها، فكانت المرضع المخلصة تتبرع بالدفاع عنها، وتدعي أنها هي نفسها التي اقترفت ذلك لكي تجنبها ما عسى أن ينزل بها من عقاب.

وهكذا شبت جولييت على الثقة بإخلاص أوزيبيا ووفائها، فبادلتها حباً بحب ووفاء بوفاء.

وكان طبيعياً أن يحرص والدا جولييت على أن يوفرا لها في قصرهما كل ما ينبغي لتربيتها تربية صالحة جديرة بوريثة مجد الأسرة وثروتها وسلطانها.

وقد درباها على الطاعة قبل كل شيء، طبقاً لما تقضي به تعاليم الدين ثم عوداها ألا تتهور أو تندفع في قول أو عمل، وألا تكون لجوجة أو مسرفة، وغرسا في نفسها وجوب اختيار الألفاظ في أحاديثها لئلا تسوء سمعتها بين الناس، وعلماها الحياكة وغزل الصوف، لتستطيع أن تقدر – وهي الغنية

المترفة – ما يعانيه الفقراء الذين يؤدون أضيق الأعمال مضطرين.

وكذلك حرص والداها على ألا يعلماها القراءة والكتابة، لأن قواعد السلوك في تلك العصور الوسطى كانت لا تسمح بتعليم الفتاة أن تقرأ وتكتب إلا إذا كانت تعد نفسياً لتصير راهبة، وكان الاعتقاد السائد في ذلك العصر أن جهل النساء بالقراءة والكتابة مما يحول دون وقوع كثير من الشرور، وكانت هناك روايات كثيرة وأقاصيص تدور حول تأييد هذا المبدأ، فبواسطة الكتابة استطاع أبطال هذه الروايات والأقاصيص أن يتصلوا بسيدات وفتيات شريفات نبيلات، وأن يفسدوا عقولهن وقلوبهن بعبارات ما كانوا ليستطيعوا أن يخاطبوهن بها، وعلى هذا لم يكن لأية زوجة، حتى لو كانت ملكة، أن تقرأ ما يرد إليها من الخطابات التي ليست من زوجها بل عليها في تلك الحالة أن تعقد مجلساً لذلك، وأن يتولى غيرها قراءة الخطاب.

وكل ما تعلمته جولييت أنها حفظت عن ظهر قلب بعض آيات الإنجيل، لتتلوها عند الصلاة، كما تعلمت أن تمشي متئدة إذا دخلت الكنيسة، وألا تحدث أية ضجة في طريقها إلى الموضع الذي تجلس فيه هناك لسماع القداس، وألا تدير رأسها أو وجهها ذات اليمين أو ذات اليسار، لأن البنت ذات التربية الصالحة يجب أن تنظر أمامها في خط مستقيم، فإذا أرادت أن تنظر إلى جهة أخرى فيجب عليها أن تتجه إليها بجسمها ووجهها معاً.

وعلموها أن تقاوم الغريزة، وألا تكون ميالة إلى المخاصمة أو إلى المعاتبة وألا تكون سريعة الغضب.

وأخيراً علموها بعد أن سارت تحسن فهم الأمور، قواعد الآداب

والسلوك، ومن بينها أنه يجب على المرأة لا تدع أحداً يقبلها إلا إذا كان شخصاً هي كلها له، وألا يمس أحد بيده يديها إلا إذا كان زوجها.

أسعد يوم في الحياة

بدت جولييت فرحة مغتبطة جداً حين أتيح لها لأول مرة أن تحظى بمناولة القربان المقدس في الكنيسة[1].

وشعرت وهي متجهة إلى المذبح في خطى وئيدة، بأن حرارة شديدة لا عهد لها بمثلها تتقد في صدرها.

ووصلت إلى المذبح وهي في شبه غيبوبة، توقع وحياً عجيباً عن شيء تؤمله في غموض دون أن تعرف كنهه.

وبعد أن انتهت من المناولة، بقيت هنيهة واقفة في صمت وذهول، وعيناها كالمطبقتين، ثم عادت إلى الموضع الذي كانت تجلس فيه قبل المناولة، شاعرة بأن جسمها أخف كثيراً مما كان، وبأن قوة خفية تكاد ترفعها عن الأرض، أو أن الملائكة يحملونها على أجنحتهم النورانية غير المرئية.

وفي مساء ذلك اليوم أقام آل كابلليتي مأدبة عظيمة في قصرهم، قدمت فيها ألوان مختلفة من أطايب الطعام والشراب، وراح أفراد الأسرة والمدعوون من الأنصار والأعوان يتنافسون فرحين في التهام لحوم الطير المشتهاة، واحتساء أجود أنواع الخمور، وعلت الضحكات من الرجال والنساء على السواء.

---

[1] مناولة القربان المقدس يتقدم لها المسيحيون إحياء لذكرى "العشاء السري" الذي جمع للمرة الأخيرة بين المسيح وتلاميذه.

وكان كل اثنين من الحاضرين يتناولان الطعام والشراب من إناء واحد، وكأس واحدة، وكلما رفعت إحدى السيدات إلى فمها كأساً لتجرع ما فيها، سارع أحد الخدم ووضع إناء تحت ذقنها حتى لا يقع شيء من الخمر على ثيابها.

وشرب القوم في هذه المأدبة خموراً من إسبانيا، وخموراً من قبرص، وخموراً ممزوجة بالعسل أو اليانسون، أو النبيذ أو الريحان.

وكان الخدم يبدون نشاطاً كبيراً في خدمة جميع الحاضرين من الأسرة والمدعوين، وقد وزعوا على الفقراء كثيراً من قطع الخبز الأسمر وعليها قطع من اللحوم المشوية التي كان الآكلون يقطعونها بأصابعهم.

ومع كثرة ما أكل القوم في تلك المأدبة لم يشعر أحد بأي انزعاج، لأن الخدم كانوا كلما أعلنوا عن لون من الطعام والشراب وأحضروه على المائدة، جربوه هم أولاً، بعد أن يضعوا فيه غصن مرجان أو سن كركدن أو قطعة من رأس ضفدع وذلك لكي يتحققوا خلوه من أي سم

يمكن أن يدرس فيه بإيعاز أحد من أنصار الإمبراطور، للنكاية بخصومهم من حزب البابا.

في سنة ١٢٩٩ كان روميو قد بلغ السابعة عشرة من عمره، وقد ذاعت حينذاك إشاعات عن حرب توشك فيرونا أن تشعل نارها لإرهاب مدن بادوا وبارما وريجيو.

وكان القوم في أواخر القرن الثاني عشر إذا أرادوا حرباً حشدوا الجنود من الشبان المغرمين بالمغامرات واقتحام الأخطار مثل روميو، أو من الرجال

الذين بلغوا عنفوان قوتهم البدنية واتخذوا الحرب صناعة لهم.

وكان هؤلاء الرجال والشبان أياً كان الحزب الذي ينتمون إليه تستهويهم هذه المبارزات الجماعية التي كان الناس في ذلك العصر يسمونها حروباً، وكان كل خمسة أو ستة من المحاربين يؤلفون فصيلة يتولى أحدهم قيادتها ويلحق بها بعض الجنود ليعني أحدهم بالجياد، وآخر يأمر المؤنة، وثالث بالأسلحة، كما يخصص خادم أو خادمان لنقل الأمتعة، وقد تبع هؤلاء امرأة مهمتها خدمة الجميع.

وهكذا كان المحاربون قليلي العدد، ولكن خلفهم في المؤخرة عدداً كبيراً من الرجال يؤلفون العسكر والحراس.

وكثيراً ما كان الذين سبق لهم أن حاربوا متكاتفين في حرب سالفة يجدون أنفسهم في الحرب الجديدة مضطرين إلى مبارزة بعضهم بعضاً، إلا أن الجميع مع ذلك كانوا يحاربون في عزم ودون أي خداع أو مواربة، أياً كان الحزب الذي ينتسبون إليه.

ولما اقتربت ساعة القتال طلب روميو من أبيه أن يأذن له في أن يشترك فيه، فأذن له وكلف بونافنتي الذى دربه على استخدام السلاح أن يرافقه ويكون مستشاراً له، وكان ذلك في شهر مايو.

كان جيش فيرونا مؤلفاً من الفرسان، يصحبهم عدد كبير من المشاة لكن هؤلاء لا يحاربون بل يبقون في المؤخرة لحراسة الذخيرة والمؤونة وخدمة المحاربين الفرسان.

وكان أكثر هؤلاء وهؤلاء من الهاربين من السجون والمعتقلات، وممن نزلت بهم عقوبات قطع الآذان، ولذلك كانوا إذا صدرت الأوامر بالهجوم والضرب والطعن كثيراً ما يهربون تاركين المؤونة والعربات التي تحملها، أما إذا انتصروا فكانوا يركضون سراعاً في مقدمة من يحرقون المزارع والحاصلات، ويقطعون أشجار البساتين، ويذبحون قطعان الماشية ويسممون الآبار، ويشنقون الفلاحين ويعتدون على الفلاحات أو يعذبونهن.

ومع أن عدد المحاربين كان قليلاً، كان منظرهم يدخل الرعب إلى القلوب، بشواربهم المرتفعة، وأثوابهم المزركشة وسيوفهم ذات الحدين والنصال الطويلة الحادة.

وكانت فرقة المشاة في جيش فيرونا متألف من ألف رجل من حاملي الأقواس والسيوف- يمشون بأقدام قوية تهز الأرض تحتها- وهم يرتلون الأناشيد الحماسية والدينية، ويصيحون مهددين متوعدين الخصوم بالويل والموت الأليم.

وكان الفرسان الألف يسيرون في المقدمة كالتماثيل، تغطيهم الدروع السابغة من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وأسلحتهم تلمع تحت أشعة الشمس، وخيولهم مغطاة بنسيج من الزرد يحميها من ضربات الخصوم حين يشتد الهجوم بالرماح والسهام.

وقد تعود أولئك الفرسان أن يطعنوا بألسنة رماحهم وجوه خصومهم حاملي الأقواس، كما تعودوا أن يخترقوا صفوف المشاة ويطعنوا الهاربين منهم، وفي كثير من الأحيان كانوا يهجمون على العدو متكاتفين كأنهم قطعة

واحدة، وقد تعودت جيادهم حومة القتال فكانت تنطلق بهم تسابق الريح بين صفوف الأعداء.

وانخرط الشاب روميو مونتيكي في سلك هذا الجيش، وكان ريش خوذته القرمزي وصلابة الجودة التي تغطي وجهه. وإحكامه شد غطاء كتفيه وذراعيه وفخذيه وركبتيه، مما جعله يعتقد أنه لن يصاب بأي ضربة تورده حتفه.

ولهذا ذهب إلى القتال بنفس واثقة وعزم ثابت وقلب فرح مثل كل الشبان عندما يذهبون للاشتراك في مغامرات خطرة.

وقبل أن يغادر قصره رأى إحدى الخادمات تذرف الدمع فصاح بها: "لماذا تبكين؟".

فقالت الخادم: "لأني أخشى أن تقابله هناك في الحرب"

فسألها: "من هذا الذي قد ألقاه هناك؟".

فقالت: "الرجل الآتي من الشرق، لقد قال المنجم جوالتييروس يوم ميلادك أنه يجب أن تحاذره، وقد سمعت ذلك المنجم يومئذ وهو يقول ذلك ورأيت في وجهه عبوساً وتفكيراً".

فضحك روميو وقال لها:

– دعي هذا الخوف.. قد سمعت أنا أيضاً هذه النبوءة عن الرجل الذي يجب أن أحذره مع أنه ليس خصماً لي، وقد قيل أنه سيكون جالساً حين ألقاه، فهل من عادة المقاتلين أن يحملوا معهم مقاعد؟. كما قيل إني سأعطيه مالاً، فهل أنا ذاهب إلى ميدان القتال لأوزع مالاً أم أوزع الضربات القاتلة؟.

لا.. لا.. لا!. لا داعي لأي شيء من الجزع أو الخوف بسبب نبوءة غير معقولة كهذه.

ثم قبل روميو خدي الخادم، وركب جواده في رشاقة، ثم همزه فانطلق به إلى حيث يلحق بالجيش في المكان الذي تجمع فيه ليبدأ السير في الميدان؛ وكان الخدم والفتيات فوق سطح القصر يلوحون لسيدهم بأغصان الأشجار، هاتفين له بالنصر وطول الحياة.

سار جيش فيرونا لملاقاة أعدائه في ساعة مبكرة من الصباح، وكان الجو لا يزال رطباً، وعند الظهيرة، توقف الجيش.. لتناول الغداء والراحة قليلاً، ثم واصل زحفه وحوافر خيله تدك الطرق دكاً. وكان إذا رأى في طريقه شجرة مثمرة قطعها رجاله لأخذ ثمرها، وإذا مروا بقطيع من الحيوان استولوا عليه ليكون طعاماً لهم، وقد يذبحون دجاجة للاستيلاء على بيضة في بطنها.

وأخيراً لاح العدو عند أقصى الأفق، ورأته الطليعة، فوقف الجيش في الأماكن المناسبة للقتال، واشتبك رجال فيرونا مع جيوش بريشيا ومانتو واحتدم العراك في شدة واستبسال، ولما خيم الظلام وكفت الجيوش عن القتال، أحصى الفريقان ضحاياهم فإذا كل فريق قد فقد اثني عشر من رجاله وحوالي ثلاثين جواداً.

وحدث أثناء الليل أن تسلل بعض الجنود والأتباع من الفريقين إلى دير للراهبات قريب من ذلك الميدان، ومن العجيب أن هؤلاء وهؤلاء سرعان ما ألف بينهم حب السلب والفجور فهجموا على الدير معاً؛ وأخذوا ينهبون ما تقع عليه أيديهم ويذبحون من لا يستسلمن لهم من الراهبات.

ولما علا الصياح والجلبة وظهرت حقيقة الحال لقواد الفريقين، هرع بعضهم إلى الدير، وأخذوا يفرقون المعتدين بالسياط حتى طردوهم من الدير، على أن هؤلاء الجنود والأتباع من الفريقين، كانت الخمر قد لعبت برؤوسهم، فتجمهروا أمام الدير؛ وراحوا يتعانقون ويسكبون الدموع متعاهدين على أن يكونوا أخوة إلى الأبد، وهكذا اضطر القواد إلى استعمال الكرابيج مرة أخرى ليردوا الجنود السكارى إلى المعسكرات.

لما بزغ الفجر رأى عساكر فيرونا أن مواقعهم مناسبة، لأنهم كانوا على مرتفع من الأرض تمتد أمامه السهول، فجمعوا كل ما كان عندهم من الدروع ووضعوها كداساً بحيث يراها الأعداء، فيخيل إليهم أنها جيش احتياطي عظيم.

ثم استؤنف القتال في وحشية؛ وأبدى كل من الفريقين براعة وشجاعة عظيمتين، ولكن النصر كتب أخيراً لجيش فيرونا، فأسر أربعين من جنود الأعداء، واستولى على عدد كبير من العربات والمؤونة، ثم عاد في فخر وزهو إلى المدينة حيث قتل الأسرى ما عدا اثني عشر منهم أرسلهم إلى بريشيا ومانتو، لينشر منظرهم الذعر والهول بين أهاليهما الثائرين.

وفي تلك المعركة أصيب روميو إصابتين إذ مس سهم كتفه دون أن يصل النصل إلى اللحم والأعصاب، ولمس دبوس صدره فحطم ضلعين فيه، وتدفق الدم على ثيابه، وأغمى عليه، وكان حامل سلاحه قد افترق عنه في معمعة القتال، فظن الجنود الذين حوله أنه مات وتركوه وشأنه في الميدان.

وأنعشته رطوبة الجو في الليل، فأفاق واستوى جالساً، وأخذ يتلفت حواليه فرأى في ضوء القمر جواداً منفرداً يرعى بعض الأعشاب، فتحامل

على نفسه ونهض فسار إليه وامتطاه في عسر، ولما وصل إلى المعسكر استقبله رفاقه بكل ترحاب مهنئين بالنجاة.

وقد تحمل روميو آلامه في صبر، ولم يجد أي تذمر أو شكوى، بل أبى أن يضمدوا جراحه واكتفى بأن شرب بعض المنعشات.

وبعد أن شرب قواد الجيش وجنوده نخب الانتصار ارتمى روميو على الأرض مثل زملائه وغط في نوم عميق، وفي صباح اليوم الثاني شعر بحمى خفيفة فمسحوه بالخمر والزيت، وقد شفي بعد ذلك لا بفضل العناية به بل بقوة اعتقاده بأنه لم يكن مريضاً.

روميو يمقت النساء

عاد روميو إلى القصر، فخلع عن جسمه درع جلد الثور التي لم تفارقه منذ ثمانية أيام، وكانت رائحة العرق والحديد والجلد تفوح منها بقوة، مما زاده شعوراً بالزهو والفخر، وجعله ينظر إلى نفسه على أساس أنه صار رجلاً له شأنه وخطره بين الرجال.

ولاحظ في الأيام التالية تغير النظرات إليه من النساء اللائي يلقاهن في الطريق، وكان من عادة الشبان الذين في مثل عمره أن يميلوا غالباً إلى الملذات، وأن يلقوا بأنفسهم في مغامرات تافهة عديدة يظهرون فيها غرامهم، أما روميو فلم يكن يأبه كهؤلاء بصغائر الأمور، بل كان ورعاً تقياً يحترم عقله وجسمه، وهكذا عاد بعد أن انتهت الحرب إلى ممارسة التمرينات العسكرية ورياضة الصيد والفروسية.

وكان حامل سلاحه كثيراً ما يقول له:

– كن على حذر دائم من الفتيات!

وكذلك كان أبوه لا يفتأ ينصح له ويردد على سمعه أن تلبية نداء الجسد مفسدة للنفس، وأن على الرجل العاقل أن يحذر المرأة ويبتعد عنها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

وكان الشاب يهز رأسه مبتسماً وهو يستمع لهذه النصائح، ثم يقول:

– لا خوف علي من هذا الخطر، فأنا بطبعي أمقت النساء!

وكان هذا الجواب يملأ نفس حامل سلاحه إعجاباً به فيقول له:

– أن الماء لتحميك ما دمت تفكر هكذا، ولا شك أن سيداً نبيلاً مثلك يا سيدي يجب أن يكون لزوجته فقط، فإن أخطار الشيطان أشد كثيراً من أخطار الحرب، فإذا أمكنك أن تتغلب على إغرائه كنت جديراً بأن تشرف اسمك وأسرتك.

والواقع أن روميو كان يمقت النساء، كما كان يخجل منهن في الوقت نفسه، ومن هنا كان شديد الحرص على اجتنابهن، وكان يرى أن شريكة حياته في المستقبل، يجب أن تكون أرفع قدراً وأطهر نفساً من جميع النساء، وكثيراً ما كان يفكر في اختيار هذه الشريكة الموافقة التي تتوافر فيها هذه الشروط، ولكن غريزة خفية كانت تدفعه إلى الإحجام والتأجيل.

ولم يكن روميو يعلم أن حرصه على اجتناب النساء قد زاد في إعجابهن به وميلهن إليه.

وكان العجب يأخذ منه كماً لأخذ نظرات التحبب والإغراء التي توجهها إليه نساء المدينة فضلاً عن الفتيات الخادمات.

وحدث يوماً أن اعترضت طريقه إحدى غانيات فيرونا، وصرحت له بإعجابها به، واستعدادها لاستقباله في أي وقت بمنزلها، دون أي مقابل.

وتوالت الرسائل الغرامية التي كان الخدم يحملونها إليه من سيدات وفتيات مختلفات، ولما كان يجهل القراءة والكتابة فإن كاهن القصر كان يقرأ له هذه الرسائل، وكان ما تتضمنه من العبارات الغرامية الحارة مما ينفخ فيه روح الشمم والكبرياء والإباء، فيهز كفيه ساخراً، ويعقب على هذه العبارات بضحك الاستخفاف والاستهزاء.

ولم يسع كاهن القصر إلا أن يعجب بسلوك روميو، وراح يقول له:

– إن النساء كلهن فاسدات؛ ألا ترى أنه إذا دام الرجس فإن المرأة توقظه، في حين أنه لا يجرؤ أن يتحرك بجانبها وهي نائمة مخافة أن يوقظها، أن المرأة حين تجد زوجها حزيناً تقول لجيرانها أنه ولد في ساعة نحس، أن الرجال المتزوجين كلهم مساكين فالذي يتزوج منهم امرأة نبيلة عليه أن يغسل رجليها ويرفع أطراف ثوبها، وزوجة الفقير تكلفه ما لا يطيق وتفرض عليه أن يقوم لها مقام الخدم، والزوجة الشابة تضعف زوجها لتعيب عليه ضعفه، وتستبدل به من هو أقوى، والزوجة العجوز تنغص عيش زوجها بغيرتها وكيدها له، وهكذا كل النساء لا يمكن أبداً أن يكن راضيات، فالحرب مستمرة إلى الأبد بينهن وبين الرجال.

ومرة أخرى قال الكاهن لروميو بعد أن قرأ له بعض تلك الوسائل.

– إن الشيطان صاحب صيدلية فيها أنواع كثيرة من السموم التي هي الخطايا، وهو يضعها في علب جميلة مزخرفة، ويجعل مذاقها حلواً ليغري الناس بالإقبال عليها، فإذا شئت أن تعيش في سلامة وأمان، فاحترس من النساء، فهن شر مغريات الشيطان.

مرض جولييت

كان الشتاء التالي في مدينة فيرونا شديد البرد عاصفاً غزير المطر وقد مرضت جولييت خلال هذا الشتاء، ولم تكن بعد قد جاوزت الثالثة عشرة من عمرها، لكنها كانت تختلف كثيراً عن أترابها من الفتيات المراهقات فلم يمتلئ جسمها وينتفخ صدرها أو تتبدل هيئتها، بل بقيت برغم نموها السريع رشيقة القد معتدلة الجسم، في عنقها وكتفيها حلاوة، وقد برز صدرها قليلاً، وبقيت عيناها السوداوان تحيط بهما أهدابهما الطويلة وتشع منهما الحيوية والطهارة، كما بقي أنفها الصغير المستقيم، وفمها الدقيق، متناسقين منسجمين، ولو أن فناناً ممن يصنعون التماثيل الدينية رآها حينذاك لوجد فيها خير نموذج لصنع تمثال رائع لقديسة طاهرة، أو ملاك كريم.

وبدأ مرض جولييت في الوقت الذي اشتد فيه الصقيع حتى جمد الماء في الأباريق، وكان ذلك في ذات مساء إذ شعرت بارتفاع حرارتها واضطراب تنفسها، ولاحظت ذلك أمها فساورها القلق والخوف عليها، فأمرتها بأن تلزم سريرها، ثم سارعت إلى طلب طبيب شهير في المدينة، فزارها في المساء نفسه وجس نبض الفتاة ونظر في عينيها ملياً، ثم نظر نظرة في النجوم وقال:

– من حسن الحظ أن القمر في ربعه الأول، وعلى هذا يكون العلاج في هذه الليلة ذا تأثير مفيد.

وعلى أثر ذلك قرر الطبيب أن يبدا العلاج بالقصد، وأمر بإغلاق النافذة لأن الفصد في ذلك القصر لم يكن يجري إلا في الظلام، وجاء الحلاق الذي دعي لفصدها مسرعاً، ومعه مساعده، وسرعان ما بدأ مهمته فأخذ بفصد قدم الفتاة، بينما مساعده يتلقى قطرات الدم في إناء من القصدير.

ولم يشترك الطبيب في جراحة الفصد هذه، لأنه لم يكن مما يليق بالطبيب حينذاك أن يمس موس أو شفرة.

وبينما الدم يسيل من كعب الفتاة، أخذ الطيب يتحدث إلى الحاضرين وهم سكوت احتراماً له فقال:

– أن دم الإنسان يزن خمسين لتراً، ومن الممكن أن نخرج منه عشرين لتراً دون أن يكون في هذا خطر على حياته أو صحته.

ثم سكت قليلاً، واستأنف كلامه فقال:

– لقد شهدت فصد أطفال كثيرين حديثي الولادة، وعالجتهم فكان النجاح حليفي، وكتب لهم الشفاء جميعاً.

ولما انتهى الحلاق من مهمته تنحى للطبيب الكبير عن مكانه، فمد هذا يده وضغط عرقاً في قدم الفتاة، ثم أخرج من كيس كبير معلق بكتفه حقاً صغيراً فيه مرهم، وقال للحاضرين.

– هذا المرهم ممنوع في مدينة كبيرة في بلاد الهند، وهو مركب من ثلاثمائة

واثنين وسبعين نوعاً من الأعشاب النادرة الثمينة، ومن شحم تنين أبيض؛ وسأتركه عندكم ليوضع قليل منه عند كبد الفتاة، ويفرك به ذلك الموضع بعناية، فالكبد من الأعضاء الأربعة الرئيسية التي يتجمع فيها الدم والأخلاط، وما العروق التي في الجسم إلا قنوات داخلية فيه كالقنوات التي تجري تحت الأرض ومنها يخرج الماء من أي موضع نحفره فيها، وهكذا يتضح لكم لماذا يخرج الدم من أي موضع فتحناه في الجسم، على أن المنبع الأصلي للدم في الجسم ليس سوى الكبد.

ثم جس الطبيب جبين جولييت، والتفت إلى الحاضرين قائلاً وسبابته ما زالت على جبينها.

– حينما يكون القمر في برج الحمل المتعلق بالرأس، يتجه نفوذه إلى ناحية الرطوبة، وحينئذ يكون الرأس فيه رطوبة، وكان أي جرح لا يمكن أن يشفى وفيه عفونة، فالواجب يقضي بأن يجفف رأس المريض أولاً وطرد الأخلاط منه، وللوصول إلى ذلك يجب أن نلجأ إلى لزقة مبللة بلبن امرأة ساخن، فهل في القصر خادم تستطيع أن تعطينا اللبن اللازم لهذا الدواء؟

فقال السيد كابلليتي:

– نعم، يمكن أن نجد خادماً تعطينا اللبن المطلوب.

فبدأ البشر في وجه الطبيب وقال:

– في هذه الحالة يمكن أن أؤكد الشفاء، ولكن يجب ألا ننسى ونحن نستنجد بالرب كي يشفي المريضة أن نعلق في عنقها قطعة من الحجر المسمى "سيليدان" وهو يوجد عادة في حويصلة طائر الخطاف.

ثم أضاف إلى ذلك قائلاً:

– احرصوا جيداً على أن تمسكوا بالخطاف الذي يستخدم لهذا الغرض قبل أن يمس الأرض.

وهنا أخذت السيدة كابلليتي تبكي وقالت للطبيب:

– ليس في إيطاليا الآن يا سيدي أثر لجنس هذا الطائر، وليس يخفي عليك أنه يكون هنا في الربيع فقط، ونحن الآن في الشتاء.

وأصغى إليها الطبيب وهو يومئ برأسه موافقاً، ثم وضع يده على عينيه، واستغرق في تفكير عميق، ليبحث عن مخرج من ذلك المأزق، وأخيراً قال لها:

– لا بأس يا سيدتي، يمكن أن تستعملوا أثراً من أحد أعضاء المريضة نفسها، على أن يكون هذا العضو مما فوق الكتفين كالسن والشعر، ولا شك في أن هذا الأثر يقوم مقام ذلك الحجر الذي أشرت إليه.

وانصرف الطبيب على أثر ذلك مودعاً بالشكر والإكرام.

وعالج آل كابلليتي ابنتهم بالطريقة التي رسمها، وبعد أسبوع دخلت جولييت في طور النقاهة.

محاولة عقد الصلح

عندما يطرد الربيع الغيوم من الجو، تنعش روح الحب حيوان البر وطير السماء، وكذلك الإنسان تثور فيه نشوة الانتعاش بالحب.

ولا تقف حرارة القوة التي يولدها الربيع في عروق الناس عند حد حب الإنتاج، بل توقظ غريزة المنافسات والأحقاد في قلوب البشر.

وحين تجف الأرض يسهل مرور عربات الحرب وركض الخيل، ويمكن إخفاء حركات الجنود بواسطة النباتات والأغصان والأشجار.

وفي المدن، تهيج الغرائز في قلوب الناس، وتضطرم نار الخصومات، وكثيراً ما تنشب المنازعات لأسباب تافهة لم يكن الناس ليأبهوا لها أو ليتحدثوا عنها، لو أن الربيع لم يكن قد جاء وحل محل الشتاء.

وهكذا لم يكد الربيع يقبل على فيرونا، حتى نشأ فيها خلاف شديد بين أنصار البابوية الملتفين حول آل كابلليتي وبين أنصار الإمبراطورية الذين يتزعمهم آل مونتيكي.

وتطور الخلاف سريعاً، ففي شهر مارس من ذلك العام وجد المارة في أحد الأزقة جثة رجل من الفريق الأول، ولم يمض قليل حتى هجم زملاؤه على منزل أحد أفراد الفريق الثاني، فقتلوا كل من فيه، وقذفوا بالإناث من النوافذ ثم أحرقوه.

وأسرع البابويون إلى آل كابلليتي، والإمبراطوريون إلى آل مونتيكي، ونفخ في الأبواق، وسلح كل نبيل رجاله وحرضهم على القتال.

وأبدى روميو حماسة شديدة، وأخذ يستعد للسير ركضاً والمشعل في يده ليوقد النيران في أحياء المدينة التي يسكنها البابويون.

وقبل أن يغادر روميو قصر أبيه، ظهر على الباب رسول من قبل السيد "برتولوميو ديللا سكالا" حاكم المدينة الجديدة، ثم دخل إلى فناء القصر يحف به اثنان من النافخين في الأبواق، فلما رأى الاستعداد العسكري قائماً هناك على قدم وساق، صاح بصاحب القصر محذراً معلناً أن الحاكم لا يريد

غير السلام والهدوء، وأنه لن يسكت على أي نزاع بين أهل المدينة. ولزم الإمبراطوريون دورهم ساخطين متذمرين، ثم أعلن الحاكم على أثر ذلك أنه رغبة في إخماد المنازعات قرر أن يحتفل قريباً بعيد عظيم، على أن يشترك في هذا الاحتفال جميع أهل المدينة.

وكان لهذا كله أثر في تهدئة الخواطر، وتناسى الأحقاد والخصومات فترك أهل المدينة ما كانوا فيه من استعداد للقتال، وأخذوا يهيئون أنفسهم لذلك الاحتفال العظيم، وللاستمتاع بما ينتظرهم فيه من أسباب البهجة.

وكان الاحتفال رائعاً حقاً، وهناك في قصر الحاكم على ضفاف الأديج، اجتمع أكثر سكان المدينة، من النبلاء وذوي الوجاهة وغيرهم وقد ساد بينهم الصلح والوئام، فأكلوا هنيئاً وشربوا مريئاً وغمرتهم موجة من الطرب والحبور.

كان السيد بارتو نوميو ديللا سكالا قد خلف أباه في منصب حاكم المدينة منذ اليوم العاشر من شهر سبتمبر سنة ١٣٠١، وقد بدأ عهد حكمة بإعلان رغبته في نشر السلام والأمن في ربوع المدينة، إذ ليس هناك مطلقاً ما يدعو إلى أن يتقابل آل مونتيكي وآل كابلليتي، وأن ينقسم سكان المدينة فريقين متباغضين متعاديين.

وحدد السيد ديللا سكالا يوم الأحد التالي موعداً يجتمع فيه آل مونتيكي وآل كابلليتي في ساحة الكنيسة، وبعد انتهاء القداس يتقدم السيد مونتيكي بصحبة ولده روميو نحو السيد كابلليتي، وبعد أن يباركهما المطران يتعانقان علناً ويلثم كل منهما فم الآخر إيذاناً بالصلح والوئام بين الأسرتين.

واستيقظت المدينة في صباح ذلك اليوم العظيم على رنين الأجراس، ونشرت الإعلام والشارات على واجهات القصور والدور، وعلقت قرب الخمور على أعواد، ومدت الموائد حافلة بألوان مختلفة شهية الطعام والشراب، وتقاطرت إلى ساحة الكنيسة جموع الفقراء والبؤساء وذي العاهات من جميع أحياء المدينة ليأكلوا ويشربوا ويطربوا، مشاركين في أفراح ذلك المهرجان العظيم.

وقبل الظهر بساعتين كانت الساحة تغص بالناس، وبعد الانتهاء من صلاة القداس فتح باب الكنيسة، وخرج السيد ديللا سكالا لابساً ثوبه المطرز بالذهب تمسك أطرافه من الخلف بعض الوصيفات، واخترق الساحة في موكبه هذا بين الإجلال والتعظيم، ثم جلس فوق المنصة التي أعدت لجلوسه هناك.

وسادت الساحة فترة سكون قصيرة، قطعتها نغمات هادئة، تصاحب مرتلي بعض الأناشيد الدينية، ثم بدأ آل مونتيكي يتجمعون في ركن من أركان الساحة يتقدمهم عميدهم والسيدة قرينته وابنهما الشاب الجميل روميو، وارتفعت دقات الأجراس، وأصوات المرتلين داخل الكنيسة، ثم ظهر آل كابلليتي يتقدمهم عميدهم يعلو وجهه بعض الوجوم وبجانبه قرينته ممسكة ذراعه داعية إياه إلى إظهار الاغتباط والابتهاج.

ووقف الفريقان كل منهما تجاه الآخر، ثم نهض السيد ديللا سكالا، ومشى بينهما في خطى وئيدة يتبعه حاملو سلاحه وضباطه، ورجال الكنيسة وعلى رأسهم المطران، ووقف الحاكم الحازم بعد خطوات، ثم رفع يديه ووجهه طالباً العون من أمه، وعلى أثر ذلك أشار إلى رئيسي الأسرتين ليحضرا إليه؛

فمشى كل منهما نحوه في صمت حتى وقفا أمامه، فأمسك يديهما وأبقاهما مجتمعين بين يديه، وتقدم المطران فباركهما؛ بينما علا هتاف الشعب، واختلط بدقات الأجراس

المدوية وأصوات الأبواق.

ولما تعانق النبيلان، أراد الحاكم أن يزيد في قوة تصافيهما فمد يديه وأمسك بهما كتفيهما، مقرباً فم كل منهما من الآخر، لتكون القبلة المتبادلة أشد وأفعل.

استجاب النبيلان؛ السيد مونتيكي، والسيد كابلليتي، لرغبة الحاكم، فأخذ كل منهما يقبل فم الآخر في شدة وحرارة بين ضجة الاحتفال.

وحدث أن دخلت شعرات من لحية السيد كابلليتي في فم السيد مونتيكي وهما يتبادلان القبل، فلما شعر بها على طرف لسانه، بدا في وجهه تقزز شديد، ثم ارتد فجأة إلى الوراء في اشمئزاز وامتعاض، ومد يده إلى فمه فأخرج بين سبابته وإبهامه شعرة من تلك الشعرات، ثم راح يخرج لسانه ويحركه في سرعة كمن يبصق ليطرد بقية الشعرات التي لصقت بأسنانه، وفسر آل كابلليتي هذه الحركة بأنها إهانة موجهة إليهم في شخص عميدهم، وفي مثل لمح البصر تحرك الشاب تيالدو ابن أخي السيد كابلليتي حركة مسرحية وصاح قائلاً:

– هذه إهانة لا يمكن أن نقبلها!

ثم استل سيفه، وافتدى به من كانوا حوله من أفراد الأسرة وأنصارها، وسرعان ما فعل النبلاء من الفريق الآخر سيوفهم استعداداً لما قد يحدث.

وهنا صح السيد ديللا سكالا بالفريقين قائلاً:

– ما هذا أيها السادة؟. الزموا الهدوء والسكون!

ثم تقدم وعيناه تتقدان بالغضب، ففرق أنصار النبيلين الذين كادوا يلتحمون، وكذلك صنع المطران فمد عكازه ليحول بين هؤلاء وهؤلاء على أن سلطة الحاكم المطلقة وسلطة المطران بمثل الله لم تكفيا لتهدئة الخواطر الثائرة، وإعادة السلام إلى النفوس التي كانت لا تزال تفيض بالحقد والبغضاء.

وهكذا أخذ الفريقان يتبادلان السباب وعبارات التحدي المثيرة، وفشلت محاولات الحاكم لإسكاتهم، وسرعان ما عادوا إلى امتشاق السيوف وأخذوا يتضاربون بها.

وأمر الحاكم بأن تسد الطرق المؤدية من الساحة إلى داخل المدينة، منعاً لانتشار النبأ المزعج وزيادة الهياج، ولكن أوامره و تعليماته لم تنفذ بدقة، فوصل النبأ إلى كثيرين ممن كانوا خارج الساحة من أنصار الفريقين، وهرعوا إليها مسلحين بما وصلت إليه أيديهم من سيوف ورماح وغيرها، وكان الطريق إلى الساحة زاخراً بأفواج أخرى ممن جذبتهم من الحقول البعيدة أصوات الأجراس والأبواق الداعية إلى المشاركة في الاحتفال، بينما آثر كثيرون أن يشاركوا فيه من بعيد، فبقوا في المزارع وجنبات المدينة ينشدون ويرقصون ويتعانقون، وهم لا يدرون شيئاً عما يجري في الوقت نفسه داخل الساحة من القتال.

الفصل الثالث

روميو بين النساء

جولييت في خطر

كان تيبالدو كابلليتي ابن عم لجولييت؛ وفي مثل سنها، وقد كسب أبوه أموالاً طائلة من التجارة؛ وأقصى أمانيه أن يزوجه جولييت ابنة أخيه الأكبر عميد الأسرة ليكون شريكها فيما ترث من لقب وجاه وسلطان.

ولم يكن السيد كابلليتي أبو جولييت يمانع في أن يتم هذا الزواج، بل كان يرى أن تيبالدو أحق بجولييت من سواه، ولكن زوجته كانت كلما خاطبها في هذا الشأن لا تكاد تكتم نفورها، ثم تسارع إلى تغيير مجرى الحديث، بعد أن تؤكد لزوجها أن ابنتهما لم تبلغ بعد السن المناسبة للزواج.

وكان هو يتظاهر دائماً بموافقته على رأي زوجته، ثم يضيف إلى ذلك قوله:

– لا ضرر مطلقاً في أن ننتظر، فجولييت ما زالت صغيرة حقاً، على أنه من الحكمة أن نبقى الباب مفتوحاً لتيبالدو وأبيه، منعاً لإثارة الغضب والنفور.

أما جولييت نفسها، فكانت تميل إلى تيبالدو منذ حداثتهما وتعجب بتلطفه وتظرفه أمامها، كما تقدر حرصه على الامتثال لأمرها؛ ومسارعته إلى تلبية كل ما تبديه من رغبات.

وكان تيبالدو قصير القامة، ذا رأس كبير يتدلى شعره المنهدل حتى يكاد أن يلتصق بحاجبيه الكثيفين، وكانت ذقنه المربعة تضفي على هيئته شيئاً من الغلظة والفظاظة، ويؤكد هذا أنه كان حاد الطبع سريع الغضب مرهف الأعصاب شديد العناد.

على أنه في حضرة جولييت كان يبدو دائماً ظريفاً مطيعاً، يحسن الإصغاء إلى كل ما تحدثه به، ويضع نفسه في خدمتها بإخلاص، ولم يكن ينسى أن يقطف الأزهار التي تعجبها ويقدمها لها في إجلال، وفي الرحلات التي كان يسمح لهما بالخروج فيها معاً لاستنشاق الهواء النقي والتمتع بحرارة الشمس، كان يأخذ بيدها ويعاونها على السير ويخلي العقبات التي تعترض طريقهما، وكثيراً ما اصطحبها في رحلة بالزورق في النهر، حيث كانت هي تجلس هادئة وادعة منشرحة الصدر، في حين يمضي هو في التجديف بساعديه القويين؛ في غير كلل ولا ملل.

وفي بعض الأحيان كانت جولييت تقطع تأملاتها لتهتف به قائلة:

– تيبالدو... تيبالدو...

فكان يلتفت إليها مرهفاً سمعه لما تريد أن تقوله، دون أن ينقطع عن التجديف، وحينئذ تسأله:

– هل تعجبك عيناي.. وهل يروقك أن تنظر إلى وجهي.

وفي بعض الأحيان كانت تفاجئه سائلة:

– قل لي يا تيبالدو.. ماذا تصنع إذا طلبت إليك أن ترمي بنفسك في ثغرة النهر الآن؟

وهنا بان تيبالدو ينتصب واقفاً في الزورق، ثم يهم بجمع سترته وهو يجيب قائلاً:

– إن حياتي كلها ملك يمينك، ولك أن تتصرفي فيها كما يحلو لك، وقال وهي تحاوره خلال نزهتها ذات يوم:

– إذا طلبت منك أن تكف عن التجديف لكي تضطجع هنا تحت قدمي فهل تجيبني إلى ذلك راضياً.

وقبل أن يجيبها واصلت كلامها فهتفت به قائلة:

– لعل شيئاً، ولكن اقترب مني، وانظر إلى السماء، أن منظرك وأنت كذلك ألطف كثيراً من انهماكك في التجديف، ومن ؟؟ وبين حاجبيك الكثيفين كأنما تفكر في مشاجرة:

ولم يسع تيبالدو بعد سماع هذه الكلمات العذبة إلا أن يغمص عينيه ويسلم وجهه ليد الفتاة وهي تربته في ترفق وحنان.

هناك في ضواحي فيرونا، كان يقوم قير شاهق حصين، تمتد حوله حقول واسعة وغابات تخللها البساتين، وقد آل ذلك القصر وما حوله إلى النبيل السيد باولو كانتاريللي، ذي الوجه البارز العظام واللحية الطويلة التي تتخللها شعرات بيضاء.

وفي كل أسبوع، كان السيد كانتاريللي يذهب إلى فيرونا مرتين ليزور السيدة لوكريشيا الغائبة المشهورة بجمالها في المسكن الذي وهبه لها من قبل مع كثير من الملابس الثمينة وجواد لتركبه في نزعاتها وتنقلاتها أما بقية أيام

الأسبوع فلم يكن له من عمل يذكر خلالها، اللهم إلا خروجه الصيد والقنص.

وكانت السيدة لوكريشيا، تمتاز فضلاً عن جمالها الباهر وجاذبيتها القوية بميلها الشديد إلى البر بالفقراء والمساكين، وكانت جموعهم تحيط بها كلما توجهت إلى الكنيسة، فتقف بينهم بقامتها الفارعة وتوزع عليهم جميعاً إعانات مالية سخية ومع كل منها ابتسامة لطيفة أو عبارة رقيقة، فتنطلق ألسنتهم بالثناء عليها والإشادة بفضلها وبسخائها الذي صار مضرب الأمثال، وأعلى من مكانتها بين عامة أهل فيرونا وضواحيها، ولاسيما أنها كانت تحرص بجانب تلك الإعانات الفردية على أغداق العطايا والهدايا والهبات من حين إلى حين على الكنائس والأديار وغيرها من مؤسسات العبادة.

وقد سمع روميو مونتيكي بذلك كعاده وشهد بعضه بنفسه، كما أنه شهد لوكريشيا نفسها غير مرة في الكنيسة تستمع مثله للقداس، فكان جمالها يلفت نظره كما يلفت أنظار الآخرين، وكان يعجب على الأخص بثيابها الناضر دائماً ووجهها الذي لا يفارقه الابتسام، ويديها الرشيقتين الدقيقتين، برغم ميل جسمها إلى الاكتناز.

على أنه لم يكن يعلم شيئاً عن احترافها الاتجار بجمالها، إلى أن صادفها في الكنيسة يوماً، وكان صديقه مركوتشيو معه حينذاك فسأله:

– من تكون هذه الأميرة الشابة التي يبهر جمالها الأبصار؟ فنظر اليه مركوتشيو متعجباً وقال:

– أية أميرة تعني يا عزيزي؟.. إنها لوكريشيا الغانية التي تتجر بجسدها.

فنظر روميو إلى مركوتشيو شزراً وقال له محتداً:

– ماذا تقول؟.. كيف تسمح لنفسك بتوجيه اتهام شنيع كهذا إلى سيدة نبيلة جميلة محسنة؟!

وابتسم صديقه ساخراً، ثم أردف قائلاً:

– هذه هي الحقيقة يا صديقي! فهذه السيدة الجميلة المحسنة ليست متزوجة، وهي في الوقت نفسه ليست طاهرة!.

ثم أخذ يروي له كثيراً مما يعرفه الناس من سيرة حياتها، وأسماء النبلاء الذين وقعوا في غرامها وفي مقدمتهم السيد كاناريللي.

وبقي روميو بعد ذلك متجهماً طول يومه، وتزاحمت في مخيلته أفكار شتى وصور عجيبة تدور كلها حول حياة تلك الغانية الجميلة، وشعر في قرارة نفسه بكراهية شديدة لذلك النبيل العجوز الذي علم من مركوتشيو أنه يستأثر بها دون أن تكون زوجته، ومضى في تصوراته وخيالاته هذه مشغولاً بها عن كل ما حوله، وتخيل أنه خلال ذلك غير مرة وهو يقتحم وسيفه في يده قصر ذلك النبيل العجوز البغيض، أو الدار التي جعلها في فيرونا مسكناً لتلك المرأة الجميلة المسكينة ليزورها فيها مرتين في الأسبوع، وكان الشاب الطيب القلب يتنفس الصعداء يشعر بغير قليل من الارتياح إذ يصور له خياله أنه استطاع إنقاذ الغانية من تلك الحياة المهينة التي تحياها مضطرة فيما يعتقد مع ذلك النبيل.

كان السيد كانتاريللي قد رأى جولييت غير مرة تسحره جمالها وشبابها الناضر، وأخذت نفسه تحدثه بأن يجعل منها زوجة له، ثم رأى من الحكمة أن يسارع إلى الأعراب عن رغبته هذه مخافة أن يسبقه أحد إلى طلب يدها، فكلف أحد أصدقائه أن يزور السيدة كابللتي ويفاتحها في الأمر.

وما كادت السيدة كابلليتي تقف على فحوى الرسالة التي أبلغها إليها ذلك الصديق حتى تجهم وجهها وصاحت به قائلة:

– ماذا تقول؟!.. ابنتي جولييت يتزوجها رجل تخطى الأربعين أهذا معقول؟

وعبثاً حاول رسول السيد كانتاريللي أن يقنع السيدة كابليتي بأن ابنتها ستكون سعيدة بهذا الزواج، وقالت له أخيراً:

– إن جولييت ما زالت صغيرة، وليس ثمة أي داع إلى التفكير في زواجها!

على أن هذا الرد الذي خيب آمال السيد كانتاريللي، لم يكن ليطفئ جذوة رغبته المتقدة في الاقتران بجولييت، بل زاد هذه الرغبة اشتعالاً فأصبح منذ ذلك الحين ولا هم له إلا في التفكير في أمر ذلك الزواج، واستنباط مختلف الحيل لإتمامه.

وحدثته نفسه بأن يكلف بعض أعوانه، أن يختطفوا الفتاة اختطافاً؛ ثم يهربوا بها في الظلام بعيداً من فيرونا.. إلى أحد قصوره في البندقية مثلاً، أو إلى مكان يعينه لهم في ميلانو.

وطفق يدرس هذا المشروع ويقلبه في مخيلته، وقضى في ذلك أياماً عديدة، ولم يعد يزور لوركريشيا إلا لماماً، كما شغل عن رحلات الصيد والقنص، وصار يقضى أكثر وقته مستغرقاً في التفكير.

وفي أثناء ذلك كان روميو هو الآخر ما زال ماضياً في تصوراته و خيالاته وتدبير مشروعاته لإنقاذ السيدة لوكريشيا من بؤرة الرذيلة التي تردت فيها.

ولم يكن يخالجه أي شك في أن الغانية الجميلة المحسنة لا رغبة لها في تلك الحياة، وإنما اضطرت اليها اضطراراً، ولهذا لن تتوانى لحظة عن الانقياد لرغبته في إنقاذها من تلك الحياة، بل لا يمكن أن تنسى له بعدئذ ذلك الجميل. ورسم روميو خطة الإنقاذ، ثم شرع في تنفيذها فتنكر في زي خادم، وأخذ يطوف حول مسكن الغانية في فيرونا، ويختلط بخدمها مستزيداً من أخبارها، سائلاً عن المواعيد التي يزورها فيها النبيل العجوز، وعن شعورها نحوه، وهل تبدو سعيدة بعشرته غير المشروعة، أم يساورها القلق والكآبة وتعرب أحياناً عن تبرمها بحياتها معه ورغبتها في أن تستعيض عنها بحياة أسمى وأطهر مع زوج شرعي شاب ظريف.

وحينما توجه السيد كانتاريللي إلى مسكن لوكريشيا لأول مرة بعد ذلك، أسرت إليه خادمتها حديث ذلك الخادم، والأسئلة العجيبة الكثيرة التي جاء يطلب الإجابة عنها، ثم قالت له:

– إن مجيء هذا الخادم الفضولي ولا شك يخفي وراءه أمراً، وأكبر الظن إنه لم يكن إلا رسولاً من سيد شباب مغرور سولت له نفسه أن يستأثر دون سيدي بجمال غانيته، ولهذا يجب أن تضاعف الحراسة على المسكن، كما يجب أن تكون هناك رقابة داخلية دقيقة.

فهم السيد كانتاريللي ما أشارت إليه الخادمة المخلصة له، والواقع أنه كان منذ تعلق قلبه بحب جولييت ورغب في الزواج بها، قد فكر في قطع كل علاقة له بلوكريشيا غير عابئ بما يكون لذلك من أثر في نفسها، أما أن تكون هي البادئة بهجره والتنكر له بعد حبه لها وإكرامه إياها وثقته فيها، فذلك آخر ما كان يخطر بباله، ولا يمكن أن يسكت عليه بأية حال.

وهكذا ثار غضب السيد كانتاريللي، وتملكته الغيرة الشديدة على الغانية التي جعل منها خليلته المختارة، وكان أن منح الخادمة التي أفضت إليه بذلك السر مكافأة سخية وأوصاها بالتزام الكتمان التام، بدلاً من أن يغادر مسكن لوكريشيا بعد ساعات، أو صباح اليوم التالي على أكثر ما كان يقدر، بقي مقيماً به دون أن يغادره قط ثلاثة أسابيع.

وفي غمرة انشغاله بأمر لوكريشيا ومراقبه حركاتها وسكناتها، ومراقبة مداخل المسكن ومخارجه خشية أن يختطفها أحد، نسى أو كاد ينسى ما كان يفكر فيه من أمر الزواج بجولييت، أو اختطافها وإرسالها إلى البندقية أو ميلانو.

وفي شهر يناير سنة ١٣٠٢ وقع حادث كان له في نفس روميو أثر كبير، ولم ينسه بعد ذلك طول حياته.

كان برتولوميو ديللا سكالا حاكماً طيباً حليماً لا يحب المخاصمات والمنازعات، ويعطف كل العطف على الأدباء والفنانين، ومن عنا ما كاد يلجأ إلى فيرونا "دانتي اليجيري" الشاعر الإيطالي المشهور بعد أن حكم عليه بالنفي أنصار البابا في فلورنسا، حتى أكرم وفادته وأحسن ضيافته، وكان

دانتي قد قام بدور سياسي كبير منضوياً تحت لواء الحزب البابوي، فلما انشق على الحزب فريق أعضائه السود، نفوه فيمن نفوهم من الأعضاء البيض.

وقد تحدث الشاعر في كتابه "الفردوس" عما لقي من لطف وكرم من "ذلك اللومباردي العظيم الذي كان على رأس السلم في شعاره صورة العصفور المقدس" وكان يعني برتولوميو ديللا سكالا و شعار أسرته المرسوم على هيئة سلم من الفضة فوق قطعة من المخمل الأزرق، وفي أعلاه صورة نسر الإمبراطورية المقدسة باسطاً جناحيه.

وكان دانتي يومئذ في السابعة والثلاثين من عمره، إذ ولد في فلورنسا سنة ١٢٦٥، ولم يؤلف بعد كتابه "الكوميديا الإلهية"، لكنه كان معروفاً بأناشيده وقصائده وانغماسه في السياسة المتطرفة لحزب "الجيبلين" وقد شن قبل ذلك ببضعة أشهر حملة قلمية شديدة على ملك فرنسا، وعلى شقيقه فيليب الذي دخل فلورنسا بدعوى عاده الأمن والنظام إلى ربوعها، ثم ما لبث أن فتك بأهلها وحرق دورها ومزارعها.

وكان دانتي ذا أنف مقوس وعينين غارقتين في محجريهما، وذقن بارزة ووجه تبدو عليه القوة والتفكير والمهابة، فكان أهل فيرونا إذ يرونه في ثوبه الأحمر وهو يسير تحت أروقتها في تؤدة ووقار، يشيرون إليه ويتهامسون قائلين:

– إنه لشاعر عظيم، ولقد ظلمه أولئك الأوغاد الذين اتهموه بالخيانة الوطنية وحكموا عليه بأن يحرق حياً، بعد أن يدفع غرامة فادحة.

وأياً ما كان الأمر، فقد أفاد برتولوميو ديللا سكالا حاكم فيرونا فائدة

كبيرة من احتضانه دانتي، إذ أخذ هذا يقرأ له المؤلفات؛ ويدبج الخطب، ويحرر الرسائل الموجهة إلى العظماء والكبراء، إلى غير ذلك من الخدمات الجليلة.

ولم يكن روميو مونتيكي يعلم إلا الشيء القليل عن الأسباب التي دعت برتولوميو إلى الاحتفال بهذا الشاعر العظيم في قصره، على أنه كان إذا لقي دانتي في الطريق، لا يسمعه إلا أن يقف متأملاً إياه في إعجاب؛ ويشعر شعوراً قوياً بأن في هيئة هذا السيد الغريب؛ ولاسيما نظراته

القوية النفاذة ما يؤكد إنه رجل عظيم.

روميو يقع في الغرام

كانت السيدة "روزالندا" امرأة بارعة الجمال شديدة الجاذبية، ذات جبين بارز، وعينين واسعتين في أهدابهما طول ملحوظ، وأنف رقيق منسجم مع فمها الرقيق، وقد أوتيت إلى ذلك جسماً من أجمل الأجسام وأكملها وأحفلها بالمفاتن مما يعجز عن وصفه الواصفون.

و كان جميع أهل الغنى واليسار في فيرونا يعرفونها، لأنها كثيراً ما كانت تستقبلهم في مسكنها الفخم الذي تقيم به، وقل بين أهل المدينة شباباً وكهولاً من لم يكن يتغنى بجمالها ويحلم بالوصول إليه.

وكان روميو مونتيكي في عداد من سحرهم جمال روزالندا، فصار دائم القلق والكآبة إلى حد أقلق عليه صديقه مركوتشيو، فأخذ يقول له ساخراً:

– ما هذا الذي أصابك أيها الصديق؟، هل تسطو عليك في الليل

ساحرة تمتص دمك، فإذا أقبل النهار ظهرت آثار ذلك في جسمك.

وكان روميو يدفعه في عنف بذراعه ويقول له:

– ماذا تهمك الأفكار التي تتردد في ذهني؟، ألست حراً في أن أفكر كيفما أشاء.. إنك لتهينني بهذا إهانة لا أقبلها.

وهنا يسارع مركوتشيو إلى الاعتذار إلى روميو مؤكداً له أنه لم يقصد مطلقاً أن يهينه، ثم يستطرد فيقول:

– ليس هناك ما يدعو إلى الانغماس في الحزن والكآبة، ولاسيما أننا مازلنا في مستهل الشباب ولم نجاوز العشرين بعد.. هلم نذهب إلى إحدى الحانات لنشرب شيئاً من الخمر، وبذلك تذهب همومك ويصفو بالك.

ولكن روميو كان يهز كتفيه ويقول: "لست أشعر بعطش"، ثم يمضي في أطرافه وتفكيره الحزين.

وقال له مركوتشيو يوماً وقد لاحظ عليه شدة ما يعانيه من قلق خفي.

– إن وراء كآبتك الشديدة الدائمة هذه لسراً تخفيه، ومن الخير لك أن تطلعني على هذا السر، أم أنت لا تثق في إخلاصي ومحبتي لك؟!

ثم أخذ مركوتشيو يكرر هذا السؤال على مسامع روميو، كلما رآه في مثل تلك الحال، وأخيراً اعترف له روميو بعد طول تردد وتفكير بالسر الذي يقلقه ويحزنه إلى ذلك الحد، فقال له:

– إني أحب روزالندا.

وفغر مركوتشيو فاه دهشة، ثم سأله:

– من تكون روزالندا هذه.. أنعني تلك الغانية اللعوب التي تستقبل الناس في مسكنها؟.. أنت لست فقيراً يا صديقي، وفي استطاعتك ولا شك أن تحصل على أكثر من المال القليل الذي يفتح لك باب قلب هذه الغانية على مصراعيه.

وهنا ثار غضب روميو حتى ظن مركوتشيو أنه يوشك أن ينقض عليه ليدق عنقه، على أنه ما لبث أن هدأ قليلاً وقال له:

– إنك لكاذب!.. ولن أسمح لك قط بأن تصور جمالها بهذه الصورة المزرية.

فقال مركوتشيو في هدوء:

– لست أطعن في جمال روزالندا، ولكني أرجو أن تفكر قليلاً في الأمر، أن روزالندا جميلة ما في ذلك شك، ولا شك أيضاً في أنها تعيش عيشة مترفة وتنفق ببذخ وإسراف، فهل لك أن تخبرني من أين تأتي بالمال الكثير التي تنفقه، في حين أنها ليست زوجة لرجل غني، كما أنها ليست سليلة أسرة غنية؛ وأبوها كما يعلم الجميع ليس أكثر من ملاح بسيط يعيش من زورق له في نهر أديجي.

ولم يجب روميو، وبقي ينظر إلى صديقه ساهماً زاهلاً، فعاد هذا يقول:

– أرأيت إذن يا صديقي أية علاقه بين جمال روزالندا، وبين من يترددون إلى مسكنها الفخم لزيارتها أفراداً وجماعات؟.. هل تحب أن أذكر لك أسماءهم؟.

وبقي روميو صامتاً واجماً، لأنه لم يجد رداً يستطيع به أن ينغص ما في أقوال مركوتشيو من حقائق قاسية مريرة.

ثم واصل مركوتشيو كلامه فقال:

– إن لم تكن قد اقتنعت، فأنا على استعداد لأن أدخلك مسكنها. لأني أعرف واحداً ممن يكثرون التردد إليه، وسترى حينئذ بعينيك أن قليلاً من المال كفيل بأن يفتح لصاحبة ذلك المسكن الذي تعتقد أنه مقدس.

وتردد روميو أول الأمر، ثم قبل واتفق مع مركوتشيو على موعد يزوران به مسكن روزالندا، ثم أنجز مركوتشيو وعده، ولم تمضي أيام حتى صار روميو في عداد زمرة النبلاء الفيرونيين الذين يجتمعون عند روزالندا كل مساء ويحتسون من كؤوس الأنس والصفاء.

وكان الحياء يلجم لسانه في بادئ الأمر. ثم بدا يتخلص من ذلك شيئاً فشيئاً على مر الأيام، وكان له من مركز أسرته، ونضرة شبابه، وملاحة وجهه وخفة روحه ما مكن له في ذلك المجلس وجعل له الصدارة بين من ينتظمهم من نبلاء وأدباء وفنانين.

وتعودت روزالندا أن تدعوه إلى حفلاتها، فكان أحياناً يلبي الدعوة مسرعاً بادي الغبطة والابتهاج، وكان أحياناً يتمتع متظاهراً بعدم الاكتراث لكي تزداد تحبباً إليه.

ولم تكن روزالندا تجهل مدى افتتانه بها، ومن هنا كانت تعمد إلى إثارته بمداعبات تكاد تكون وعوداً، فإذا اشتملت ثورة عواطفه وحاول أن يدير

دفة الحديث إلى المصارحة والمكاشفة، سارعت إلى قطع حديثه وقالت له في جد وهدوء:

– إلى هنا يحسن الوقوف أيها السيد النبيل.

وكان روميو ينكمش مطيعاً، ويعتبر تصرفها ذلك برهاناً على طهارة روحها ونيل قلبها، فيزداد إجلالاً وإكباراً لها.

وكانت هي تزدهي كثيراً بأن ينظر إليها روميو هذه النظرة.

والواقع أن أكبر ما كان يدفع روزالندا إلى ذلك أنها كانت تخشى أن تغضب القدماء من المعجبين بجمالها وفتنتها إن هي ذهبت في الاستجابة لرغبات روميو إلى أكثر من هذا الحد، فتفقد بذلك مورداً لا يعوض.

وكان روميو أحياناً لا يستطيع أن يكتم عن صديقه مركوتشيو سخطه على روزالندا واحتقاره غرامها بالأشياء المادية، وميلها إلى الإبهام والغموض حيناً، وإلى إبراز عواطفها حيناً آخر، ثم يردف ذلك قائلاً:

– ما رأيك يا مركوتشيو: ألا يحق لي إذن أن أعجل بإنقاذها من ذلك الجو الخانق الذي يضطرها إلى ذلك، إنها ولا شك ستكون أجمل كثيراً حين تحب حباً طاهراً شريفاً تعطيه كل قلبها.

وهنا كان مركوتشيو يضحك ويقول له:

– إنك تضيع وقتك سدى!

ولكن روميو لم يكن يقتنع بهذا، فيقول لمركوتشيو:

– كيف؟.. أي قيمة للوقت بجانب أن ينقذ المرء نفساً؟

وتوجه روميو إلى كنيسة سان زانون، ليحضر القداس فيها كعادته وللاشتراك في الاحتفال الديني الذي يقام بعد ذلك.

وكان أحد أبناء الإمبراطور شارلمان، قد أمر بإنشاء هذه الكنيسة ولكن بناءها لم يتم إلا منذ خمسين عاماً، وقد امتازت بكثرة التماثيل التي حفرها بعض المثالين الأتقياء على جدرانها المحجوبة، ولا يزال فيها حتى الآن تمثال السيد المسيح، وصورة تمثل محكمة بيلاطوس النبطي يبدو فيها القضاة والجلادون رءوسهم غليظة وعيونهم بارزة مثل الضفادع، وفي الكنيسة كذلك صور الملائكة تبسط أجنحتها، وصور بديعة تبرز قدرة الخالق وعظمته أو تمثل وحشية إعدام المسيح، وكثير من أجنحة الملائكة في تلك الصور، أقرب شبهاً إلى أجنحة الخفافيش، ولكن ذلك لا يرجع إلى قلة إيمان الفنانين الذين قاموا بتلك الأعمال، بل هو يرجع إلى قصور هؤلاء في الفن.

وبعد أن انتهى روميو من الصلاة غادر الكنيسة مع بقية من كانوا فيها من المصلين، وذهب الجميع لحضور احتفال ديني علني كان رجال الدين قد قرروا أن يقيموه في مساء ذلك اليوم.

وسار المصلون يحملون المصابيح والمشاعل والشموع في شوارع فيرونا المظلمة التي لم يكن نور النهار يصل إليها إلا من بين سقوف المنازل المتلاصقة، وكان رجال الدين يحملون صلباناً ومباخر وتماثيل من الخشب وأعلاماً وصناديق آثار القديسين، وكانت أصوات مرتلي الأناشيد الدينية تختلط بأصوات المغنين، وكانت جماعة من رجال الدين من أعمار ومذاهب

مختلفة تحيط بالصور المقدسة المحمولة بالأيدي، بينما حملة المباخر يمشون خلفها وهم يهزون مباخرهم ليتصاعد منها البخور.

ووضع القوم على عربة طفلاً عمره خمس سنوات، ليمثل القديس يوحنا، وكان الطفل جميلاً أشقر الشعر مجعدة، له عينان كبيرتان سوداوان، فكانت الابتسامات وعبارات الإعجاب تنهال عليه من الجميع ولاسيما السيدات، وكان بعض الحاضرين والحاضرات لا يكتفون بذلك ويرسلون إليه قبلات في الهواء.

ولما مرت العربة بالقرب من روميو، وكان الزحام شديداً، زلت قدمه واضطر إلى أن يستند إلى كتف شاب كان إلى جواره حينذاك، فصاح به هذا قائلاً:

– ماذا دهاك يا فتى؟.. ألم يبق لساقيك قوة لحملك؟

وابتسم روميو وأجابه قائلاً:

– لقد زلت قدمي فلم أستطع إلا أن استند على كتفك، فإذا كانت هذه الحركة الطفيفة لم تتحملها كتفك فأنت أشد حاجة إلى التقوية ولا شك.

وهنا ثار ذلك الشاب وقال لروميو:

– انتظر قليلاً، ولسوف أسمرك على الباب حتى لا تزعج أحداً من جيرانك بعد ذلك!

وكان صبر روميو قد نفذ، ولم يطق السكوت على هذه الإهانة فقال للشاب:

– إذا لم تكن نذلاً فاقترب مني لأريك إني لو تعمدت أن أوقعك لاستطعت هذا بدفعة أعنف وأشد.

فهاج الشاب واستل خنجره، وكذلك فعل روميو، ولكن الذين كانوا حولهما سارعوا إلى إبعاد كل منهما عن الآخر، وحملوهما على إغماد خنجريهما ثم استطاع الشابان أن يتلاكما بالأيدي، فسال الدم من شفاههما، واحمرت عيونهما من شدة الضرب، وصاح أحد الحاضرين:

– أين رجال الحرس، أن أحدهما سيقتل الآخر إن استمرا في هذه الملاكمة.

وفي تلك اللحظة جاء رجال الحرس وفرقوا الشابين برماحهم، ثم مد قائد الحرس رمحه بينهما، وأمرهما بأن يكف عن العراك ثم قال لهما بعد هنيهة:

– يجب أن أعرف اسم كل منكما لعرض الأمر على القاضي.

فقال روميو في زهو وهو يمسح بكمه الممزق أنفه وفمه: – اسمي روميو مونتيكي.

فلما سمع اسمه رئيس الحرس أسف كل الأسف لتدخله وتمنى أن لو بقي في المعسكر دون أن يعرض نفسه لهذا الموقف المحرج.

ثم التفت إلى الشاب الآخر وسأله:

– وأنت ما اسمك أيها الفتى الشقي؟

فأجاب الشاب في مثل زهو روميو وفخاره:

– اسمي تيبالدو وأنا من آل كابلليتي.

ثم عاوده الغضب والاهتياج كان اسم مونتيكي نفخ فيه ناراً.

وعرف روميو في تلك اللحظة فقط ذلك الشاب، وتذكر أنه شاهده جالساً إلى جانب زعيم آل كابلليتي يوم حاول السيد ديللا سكالا أن يصلح بين الأسرتين الشريفتين.

وعندئذ حضرت لحسن الحظ فصيلة أخرى من الشرطة فقال الرئيس:

– اصحبوا أنتم هذا النبيل كابلليتي حتى قصره بكل احترام.

وأنا وهؤلاء نذهب مع السيد مونتيكي إلى داره لنمنع عنه الأذى.

وذهب كل فريق من رجال الشرطة في طريق وهم يحرسون المذنبين اللذين أصبحا في حماية الشرطة منذ اتضح أنهما من الأشراف.

الفصل الرابع

مولد غرام

رقصة وأغنية وقف أحد الخدم حائراً في ساحة السوق العامة بمدينة فيرونا، وكانت في يده ورقة طويلة بها كتابة يتفرس فيها ويقلب الورقة ظهراً لبطن ثم يعيدها كما كانت، ويهز رأسه وكتفيه ويمط شفتيه في حركات مضحكة تدل على دهشته البالغة وقلقه الشديد.

ومر روميو في تلك اللحظة بساحة السوق ومعه صديقه مركوتشيو فاسترعى انتباههما منظر ذلك الخادم، ووقفاً قريباً منه يتأملان حركاته ويتهامسان ويبتسمان.

واقترب مركوتشيو من الخادم الحائر وسأله:

– ما الذي يقلقك ويحيرك، هل فقدت شيئاً هنا؟

فتنهد الخادم، ونظر إليه قائلاً:

– لم أفقد شيئاً بعد، ولكن أكاد أفقد عقلي بسبب الأسماء المكتوبة في هذه الورقة، إذ أنني فقير لم أتعلم القراءة والكتابة، ومع هذا يجب أن أعرف كل اسم من هذه الأسماء المكتوبة لكي أدعو صاحبها إلى الحفلة التي يقيمها سيدي عميد أل كابلليتي.

وما سمع روميو اسم كابلليتي حتى اختفى البشر والمرح من وجهه فجأة، وحل محلهما التبرم والضيق، ثم قال لمركوتشيو:

– هلم نذهب بعيداً من هنا، فلست أطيق الوقوف لحظة بعد الآن.

وأسرع مركوتشيو في قراءة الأسماء المكتوبة في الورقة على الخادم، ثم ردها إليه، فتناولها الخادم وهم بالانصراف قائلاً:

– شكراً لك يا سيدي، إن معرفة هذه العلامات المكتوبة لمهمة صعبة، ولكن ذاكرتي قوية وقد حفظت الأسماء التي تلوتها على كلها، وسأقوم بمهمتي خير قيام، وهذا كله بفضلك، جزاك الله عني خيراً.

واستأنف الشابان سيرهما بعد أن انصرف الخادم، وبقيا هنيهة صامتين، ثم مط روميو شفته السفلى دلالة على اشمئزازه وقال:

– السيد كابلليتي يقيم حفلة ؟!.. لماذا يا ترى؟

وأخذ مركوتشيو يبسط لروميو ما وصل إلى علمه عن الاستعدادات التي كانت قائمة على قدم وساق لإقامة تلك الحفلة، وأفاض في الحديث عما ينتظر أن تتضمنه من غناء ورقص وطعام وشراب وألعاب مسلية مختلفة، ثم توقف عن السير وقال لروميو:

– لا شك إنها ستكون حفلة لطيفة، وشد ما كان يسرني ألا يفوتك الاستمتاع بما فيها، ولكنك طبعاً لا يمكن أن ترضى أن تكون بين حاضريها.

وهنا سأل روميو صديقه:

– وماذا يمنعني من أن أكون بينهم؟

فحدجه مركوتشيو بنظرة من مؤخرة عينه وقال له:

– يمنعك من ذلك أنك من آل مونتيكي، وأنك لهذا لا يمكن أن تدخل قصر آل كابلليتي إلا شاهراً سيفك لقتال.

فأطرق روميو، وبقي حيناً صامتاً يعبث بطرف بنانه بين أسنانه ثم رفع رأسه فجأة وقال لمركوتشيو:

– أليس السيد مرتولوميو ديللا سكالا حاكم المدينة بين المدعوين؟ فأومأ مركوتشيو برأسه موافقاً وقال:

– نعم، وقد قرأت اسمه في رأس القائمة التي كانت مع الخادم.

فقال روميو: "إذن لن يمكن في حضوره أن يحاول أحد استعمال القوة أثناء تلك الحفلة.

ثم مضى يشرح له فكرة خطرت بباله، هي أن يذهب متنكراً إلى قصر السيد كابلليتي يوم الحفلة وبذلك يتاح له أن يشهدها ويستمتع بكل ما تحويه دون أن يعلم بذلك أحد من آل كابلليتي أو آل مونتيكي.

ولم يوافق مركوتشيو على هذه الفكرة، وأخذ يبين لروميو ما في تنفيذها من مغامرة محفوفة بالأخطار، ولكن تحذيره هذا لم يزد روميو إلا استمساكاً بتنفيذ فكرته، ولما افترقا بعد حين، كان روميو قد وطد عزمه على حضور حفلة السيد كابلليتي، ثم ليكن بعد ذلك ما يكون.

أقيمت حفلة السيد كابلليتي في شهر يوليو سنة ١٣٠٣، وقد بلغت حرارة الجو أشدها في تلك الليلة، وزاد في شدة الحرارة ازدحام القصر

بالمدعوين والمدعوات، وبأفراد فرق الموسيقى والغناء والشعراء والمحدثين والبهلوانات والحواة ومن إليهم ممن استقدموا إليها للتسلية والترفيه، وهذا عدا عشرات الخدم والطهاة والحراس، وعدا الحرارة المنبعثة من عديد المشاعل والشموع، ومن المطابخ والأفران.

ولم تكن بدانة السيدة كابلليتي أشد ما يضايقها في تلك الليلة، فقد كان عليها أن ترتدي ثياباً من المخمل الزركشي الثقيل!.. وكان عليها فوق ذلك أن تتجاهل ما يتصبب من عرقها مدراراً لكي تمضي ساعات قبل موعد الحفلة في الطواف بأنحاء القصر ومطابخه للإشراف على إعداد الموائد وألوان الطعام والشراب وترتيب مقاعد المدعوين

والمدعوات وتنظيم حصة الرقص دون أن تنقطع لحصة واحدة طول مدة الساعات عن إصدار التعليمات وإبداء الملاحظات والتوجيهات.

أما السيد كابلليتي، فقد حصر مهمته في إصدار التعليمات لنافخي الأبواق والحراس وحاملي السلاح.

وما أذنت شمس ذلك اليوم بالغروب حتى كان كل شيء على ما يرام لاستقبال المدعوين والمدعوات، وقد ارتدى النبلاء أثمن الثياب، والنبيلات ما تحلين به من مختلف أنواع الجواهر واللالئ والمصوغات.

وبالغ أهل القصر في حسن استقبال ضيوفهم والترحيب بهم، وكان كثيرون وكثيرات جاءوا إلى الحفلة متنكرين طبقاً للتقاليد الإيطالية في ذلك العصر، ولم يمضي وقت قليل حتى تكامل عددهم، واستقروا في مقاعدهم، فأخذ الخدم يطوفون عليهم بأكواب الخمر، وهم يشربون ويتسامرون

ويتبادلون الأحاديث والنوادر والفكاهات، وفي خلال ذلك يلتهمون ما حفلت به الموائد من ألوان الطعام.

وعرفت الموسيقى بعد ساعة إيذاناً بحلول موعد الرقص فانتقل الضيوف إلى القاعة الكرة المخصصة لذلك، وجلسوا صفوفاً على المقاعد الوفيرة التي أعدت هناك على هيئة دائرة أخلى وسطها مكان تفسح للراقصين والراقصات.

ثم بدأ الرقص على نغمات الموسيقى، وكان كل اثنين يرقصان معاً، وكلهم يدورون داخل تلك الدائرة، بينما الجالسون يرقبونهم فرحين مغتبطين.

وهنالك خلف أحد الأعمدة الضخمة التي أقيمت عليها جوانب القاعة قبع اثنان من المدعوين وأخذا يتهامسان من حين إلى حين وهما يرقبان الرقص، وكان أحدهما متنكراً في زي سيدة، وقد بدا أنه ضاق ذرعاً بشدة الحر، وبالقناع الثقيل الذي يغطي رأسه ووجهه ولا يبين منه إلا عيناه، ثم همس في أذن زميله قائلاً:

– أشعر بأنني سأختنق من شدة الحر:

ثم مد يده إلى قناعة الثقيل فأزاحه عن وجهه قليلاً، ولكن زميله صارع إلى منعه من ذلك قائلاً:

– حذار يا روميو!.. إياك أن تكشف عن وجهك، وإلا ألقيت بنفسك إلى التهلكة بهذه الحماقة الشنيعة.

ولكن روميو، لم يعبأ بتحذير صديقه مركوتشيو، وسرعان ما كشف عن

وجهه ذلك القناع الذي كان يخفيه، ثم تنهد وقال:

– قلت لك أن شدة الحر كادت تزهق روحي.

وعض مركوتشيو شفتيه غيظاً وحنقاً، ثم تلفت حواليه، وقال له:

– يجب أن نغادر هذا المكان فوراً.. إنهم سيعرفون وجهك ولا شك، وأنت تعرف ما لابد أن يترتب على ذلك.

ولم يزد روميو على أن ابتسم وهز كتفيه ساخراً في عناد؛ ث راح يتابع بنظراته الراقصين والراقصات ووجهه يفيض بدلائل عدم الاكتراث بل يفيض بالارتياح والسرور.

ولم يلحظ الرجال وجه روميو أول الأمر، ولكن النساء سرعان ما اتجهت إليه أنظارهن.

و كان بين الرقصات التي جرت في الحلقة بعد ذلك رقصة ريفية تقليدية تنتهي عادة بأن يحيط بعض المشتركين والمشتركات فيها بأحد الجالسين ثم يجروه إلى الرقص معهم ويرغموه على ذلك إرغاماً إن لم يستجب لهم، فانتهزت إحدى السيدات الراقصات هذه الفرصة وانقضت على روميو في مجلسه وراحت تجذب ثوبه داعية إياه إلى مراقصتها، فراح هو يحاول أن يفلت من يدها، وبذل مركوتشيو كل ما استطاع من جهد وحيلة لمعا ونته على التخلص من هذا المأزق الذي أوقع نفسه فيه، ولكن السيدة تشبثت بأطراف ثوبه، ولم تتركه إلا بعد جهد جهيد سقط خلاله قناعه عن رأسه كما سقط الثوب النسائي الذي تنكر فيه عن كتفه وصدره فظهر تحته ثوبه الحقيقي.

ولم يشك هو ولا مركوتشيو في أن أمرها قد انكشف، على أن سحب الدخان الكثيف المنبعث من المشاعل الموقدة، وانشغال أكثر الرجال الحاضرين بمتابعة الرقص والموسيقى، فضلاً عن إفراطهم جميعاً في الشراب، كل ذلك كان مما سهل لروميو وصاحبة الإفلات من يد الراقصة الممسكة بهما، والاختفاء بعيداً من متناولها في زحمة الحاضرين والحاضرات.

ولما انتهت تلك الرقصة الريفية، حانت من تيبالدو ابن عم جولييت التفاتة إلى الركن الجديد الذى انزوى فيه روميو، فعرفه بوجهه، وأخذه الحنق والغيظ لجرأته؛ فغادر مكانه في الحلقة متجهاً إلى حيث كان يجلس عمه السيد كابلليتي، حتى إذا بلغه بعد أن دفع كثيراً ممن كانوا في طريقه من المدعوين والمدعوات قال له وهو يشير إلى روميو عابساً مقطب الجبين.

– انظر يا عماه.. إن عدواً لدوداً من أعدائنا بلغت به القحة والجرأة أن اقتحم مقرنا، أن روميو مونتيكي هنا في هذه الحفلة، ولأمر ما جاء إلى هنا، ولابد قبل طرده من أن نلقي عليه درساً لا ينساه يكون عبرة لسواه.

والتفت السيد كابلليتي إلى الجهة التي أشار اليها تيبالدو، ثم انفرجت شفتاه عن ابتسامة خفيفة وأومأ بيده داعياً تيبالدو إلى الهدوء قائلاً له:

هون عليك يا عزيزي، إن اليوم يوم فرح وبهجة لا يوم قتال ونزال، ولعل خطأ وقع في توجيه الدعوات إلى الحفلة، وأيا ما كان الأمر فليس هناك ما يدعو إلى تعكير صفونا وأنسنا، ولينزل على الرحب والسعة كل من دخل هذا القصر وإن كان من آل مونتيكي.

وكان الرقص قد استؤنف خلال ذلك، وظهرت على الحلقة جولييت

ممسكة يد روميو استعداداً لاشتراكهما في الرقص، فاشتد غيظ تيبالدو ورفع صوته قائلاً لعمه:

– هذا لا يمكن أن يكون، هذا عار!.. إن روميو مونتيكي يراقص جولييت.

فنظر السيد كابلليتي إلى الحلقة هنيهة، ثم التفت إلى تيبالدو وربت كتفه بيده داعياً إياه مرة أخرى إلى الهدوء، وقال له في لهجة حازمة:

– يحسن أن تملأ رئتيك من هواء الليل الطلق النقي خارج القاعة إن شدة الحرارة هنا تهيج الأعصاب أكثر مما ينبغي، ولا تنس إني في سن لا أحتاج فيها إلى من يبصرني بواجبي.

وجمد تيبالدو في مكانه هنيهة، وهو ينقل نظراته الحانقة بين عمه وبين حلقة الرقص، ثم مط شفتيه مشمئزاً مقطب الجبين، وغادر القاعة صامتاً ويداه معقودتان على ظهره وما لبث أن اختفى عن الأنظار.

وقفت جولييت كابلليتي وحدها وسط حلقة الرقص لتلقي أغنية تقليدية تسلى بها المدعوين والمدعوات على أنغام الموسيقى، واستهلت أغنيتها قائلة:

– أنا وردة في الظل وحدي.. وارتفعت أصوات بعض الحاضرين مرددة على أنغام الموسيقى.

– وردة ناضرة جميلة لطيفة! فاستطردت جولييت تنشد يصوت عذب:

– لكنني مع هذا لم أعرف الحب بعد!

وهنا انبرى من بين الحاضرين فتى من أبناء آل كابلليتي، وأخذ مكانه وسط الحلقة أمام جولييت، ومضى في الأغنية نفسها منشداً:

– إذن أقطف أنا هذه الوردة؟

ثم انطلق يرقص على أنغام الموسيقى، وكلما اقترب من جولييت نفرت مبتعدة منه في رشاقة وخفة ودلال، ثم يعودان إلى الالتقاء وجهاً لوجه وسط الحلقة، وينشدان معاً بعض مقاطع الأغنية الغرامية الراقصة التقليدية، بينما أصوات الآلات الموسيقية تزداد ارتفاعًا، وتمتزج بها أصوات الحاضرين وهم يرددون تلك المقاطع ويصفقون!

حب حتى الموت

بقي مركوتشيو منتظراً على أحر من الجمر حتى انتهى روميو من الرقصة الأخيرة مع جولييت، فلما رجع إليه هذا متسللاً في ضجة التحيات التي انطلقت بها أكف الحاضرين وحناجرهم تصفيقاً وهتافاً، ابتدره قائلاً:

– حسناً... فلنمضي الآن وحسبك ما كان.

فأومأ روميو موافقاً، وغادرا القاعة والقصر مسرعين، وما كادا يجتازان الباب الخارجي حتى تنفس كل منهما الصعداء، وقال مركوتشيو:

– ما أحسن هواء الليل! إن الجو هناك خانق حقاً:

ولم يسمع روميو عبارة صديقه، إذ كان ذهنه ما برح مشغولاً بالفتاة الحسناء النظيفة ذات الثوب الأبيض، فقال له:

– أرأيتها... من تكون يا ترى؟.. ألا تعرف اسمها.. ما أبدعها يا صديقي

وما أروع حسنها وخفة روحها؛.. إنها ولا شك ليست من أسرتهم.

ووقف روميو على أثر ذلك واضعاً يده على كتف صديقه وأخذ ينظر إليه من لسماع الجواب، فابتسم مركوتشيو وأمسك ذراع روميو وجذبه ليواصل المشي والابتعاد من القصر قائلاً:

- امض أيها الحالم بالحب.. امض.. إن الذنب ليس ذنبك، ولكنه ذنب روزالندا!.. فلو أنها تعطفت عليك وساعدت بإخماد ثورة أعصابك، ما كان هذا حالك الآن.

ولم يفهم روميو شيئاً من عبارة مركوتشيو هذه أيضاً، وعاود سؤاله عن الفتاة ذات الثوب الأبيض.

فابتسم مركوتشيو مرة أخرى وقال له:

– عجيب منك أنك لم تعرفها، لكن معذور يا صديقي فإن حبك لروزالندا شغلك عن كل ما عداه خلال العامين الآخرين.

فقال له روميو:

– أنت تعرفها إذن.. ما اسمها يا صديقي؟

فقال: "اسمها جولييت.. جولييت كابلليتي".

فتوقف روميو وأمسك ذراع مركوتشيو وقال متعجباً:

– جولييت كابلليتي؟!. كيف يكون هذا؟.. أهي تلك الصبية الصغيرة التي رأيناها في النهر تستحم وتتعب؟!

فقال مركوتشيو:

– نعم.. إنها هي نفسها تلك الصبية، لقد بلغت الخامسة عشرة من عمرها، واكتملت رشاقتها وحلاوتها وجاذبيتها، وهي اليوم أجمل فتيات لومبارديا على الإطلاق.

وشعر روميو بأن قلبه يخفق بشدة، ورفع عينيه إلى السماء الصافية الأديم، وبدا كأنما يتابع كواكبها المتألقة، بينما الأصوات المنبعثة من قصر آل كابلليتي تنساب إلى أذنيه، وأضواء المشاعل العديدة حول القصر تشق حجاب الظلام وتنير معالم الطريق.

ثم تنهد وقال:

– هي إذن جولييت؟.. لكن.. أواثق أنت من ذلك يا مركوتشيو أنني لا أستطيع أن أصدق هذا.. إن العوسج لا يمكن أن ينبت ورداً، كيف تصدق أنت أن هذه الفتاة الحلوة المرحة الظريفة ابنة ذينك الجلفين الغليظين؟!

فضحك مركوتشيو وقال:

– إن الحب يوحي إليك يا صديقي بنظريات عجيبة في شئون الطبيعة، ولكن ما قلته لك هو الحق الذي لا شك فيه، فهذه الفتاة التي سعدت بنظراتها وبسماتها وشدوها ورقصها هي جولييت ابنة السيد كابلليتي صاحب القصر الذي كنا فيه.

وبدا روميو زائغ البصر شارد اللب، ثم التفت إلى مركوتشيو فجأة وقال له:

– مركوتشيو.. هيا بنا، لنعد إلى القصر.. إن الحفلة ما زالت قائمة، ولابد لي من أن أعود إليها.. أحب أن أراها ثانية؟

ثم استدار على أثر ذلك وجذب ذراع مركوتشيو ليعود معه إلى القصر، ولكن هذا أمسكه بقوة وهز كتفيه قائلاً:

– كلا. كلا يا روميو، ما كل مرة تسلم الجرة، وعليك أن تحمد الله على أن انتهت مغامرتك الجريئة الخطيرة بسلام، ثم لا تنس أن القوم قد بدأت نشوة السكر والغناء والرقص تزايلهم.

وحاول روميو أن يخلص ذراعه من قبضة صديقه وهو يقول:

– دعني!.. أريد أن أراها.. أريد أن أرى جولييت!

ولكن مركوتشيو تشبث بذراعه، وأخذ يهمس في أذنه قائلاً:

– إذا كنت راغباً حقاً في أن تراها، فخير لك ألا تعود إلى القصر الآن، إنك من آل مونتيكي، وهي من آل كابلليتي، فتلاقيكما هكذا يستحيل أن ترضى عنه الأسرتان وبينهما ما تعلم من عداوة وبغضاء، وفي استطاعتك أن تكون أكثر حكمة وعقلاً، فاصبر حتى ترسم خطة محكمة تكفى تلاقيكما خفية في غفلة من الرقباء، وفي استطاعتك بعد ذلك أن تلقاها كلما شئت وشاءت.. هذا إذا كنت حقاً قد أحببتها، ولم يكن ما تشعر به الآن لا يعدو أن يكون إعجاباً عارضاً لا يلبث أن يهدأ أو تخمد جذوته و...

فقطع روميو كلامه وقال:

– كلا.. كلا.. أنا أحبها من كل قلبي.. أحبها كل الحب.. وسأحبها حتى الموت.

أحلام الحب

بقيت جولييت ساهرة تشارك في مباهج الحفلة حتى دقت ساعات الكنائس في المدينة مؤذنة بانتصاف الليل، فقالت لها أمها:

– لقد سهرت أكثر مما ينبغي لك يا جولييت، ويجب أن ترتاحي الآن!

وللمرة الأولى، لم تقتنع الفتاة بأن أمها على حق!.. صحيح أنها بذلت جهداً كبيراً في الحفلة وفي الاستعداد لها قبل ذلك، لكنها لم تكن تشعر بأي تعب، بل كانت على عكس ذلك تشعر برغبة قوية في أن تبقى في الحفلة، وأن تعاود الغناء والرقص.. على أنها كانت قد تعودت الطاعة والامتثال، فلم يسعها إلا أن نهضت متثاقلة، وغادرت القاعة المزدحمة في خطى وئيدة، وهي ترسل نظرات فاحصة على وجوه المدعوين والمدعوات، كأنما تبحث بينها عن وجه بعينه.

ولما صعدت إلى غرفتها، واستبدت بثياب الحفلة قميصها الفضفاض الطويل، لم تشأ أن تذهب إلى فراشها مباشرة، بل اتجهت إلى الشرفة واستندت بذراعيها الى حاجزها، ثم راحت تتطلع إلى الفضاء الفسيح الممتد أمام عينيها، وهناك في أقصاه نهر الأديج، لكنه لا يكاد يبين في ضوء القمر والنجوم.

وأنعشتها النسمات الرقيقة التي أخذت تداعب شعرها ووجهها، وكانت الليلة من أحسن ليالي الصيف في فيرونا، وأطربتها الموسيقى المنبعثة من نقيق

الضفادع في الحقول التي غمرها الماء، وصرير الجنادب هنا وهناك في أطراف المدينة، ومن حين إلى حين كان سمعها يتبين خلال ذلك أصوات بعض الصيادين والملاحين السابحة بهم زوارقهم في النهر البعيد.. وأحياناً تخفت كل هذه الأصوات، وتهدأ ضجة من لا يزالون في الحفلة، فيسود السكون التام، ويخيل إليها أن الكون كله قد استغرق في سبات عميق.

وأطلقت جولييت لفكرها العنان، وعاودتها نشوة السعادة التي شعرت بها تغمرها في الحفلة، وخيل إليها أن صدرها قد اتسع، وأن قلبها يهتز طرباً بين ضلوعها، وأخذت المشاهد البهيجة السعيدة التي استمتعت بها تكر راجعة على لوحة خيالها، وهي مطبقة جفنيها، مستندة إلى حاجز الشرفة بذراعيها، ومن بين هذه المشاهد ما كان يمر سريعاً ولا يلبث أن يختفي، ومن بينها ما كان يستأني ويتمهل، فتستغرق بكل شعورها في استجلاء دقائقه وخوافيه.

وقد ذكرت أباها، ذلك الشيخ المهيب الذي أحبته بكل قلبها، وكان له الفضل الأول في السماح لها بأن تشهد لأول مرة ذلك الحفل الساهر الراقص البهيج.

وذكرت والدتها التي افتنت في تجميلها وتزيينها لتبدو في الحفلة مكتملة الروعة والبهاء، كما ذكرت أوزيبيا مرضعها الحنون التي سهرت ليلتين متتاليتين لتتم تطريز الثوب الأبيض الناصع الذي أضفى عليها جمالاً وجلالاً طالعت آثارهما في كثير من نظرات المعجبين والمعجبات.

وتتابعت على لوحة خيالها صور كثيرين وكثيرات من المدعوين

والمدعوات، في ثيابهم الفخمة الأنيقة، وزينتهم الجاهرة بما اشملت عليه من جواهر نادرة ثمينة لا تقدر بمال.

واستقر خيالها أخيراً عند صورة حلقة الرفض، فأخذت تستعرض الراقصين والراقصات، وتتريث عند كل حركة رشيقة، أو نغمة عذبة، أو كلمة لطيفة.

وما لبث اهتمامها كله أن تركز في صورة ذلك الفتى النبيل ذي القامة الفارعة الممشوقة، والوجه الباسم الصبوح، والنظرات الهادئة الصادقة، والبسمات الخفيفة اللطيفة، والرقصات البارعة، الرائعة برغم ما لاحظته عليه أحياناً من قلق واضطراب.

وهنا سألت نفسها: ترى من يكون ذلك الفتى النبيل الجميل، ولماذا اختفى فجأة عقب الرقصة الأخيرة؟

ومضت تتذكر قسمات وجهه، وتحصى نظراته إليها وابتساماته، وأنيابه قطعة قطعة، كل حركاته وسكناته منذ وقعت عليه عيناها إلى أن غادر الحفلة متسللاً قبل أن تعرف من يكون.

وحلق بها خيالها في جو المستقبل المجهول، فصورت ذلك الفى النبيل الجميل هو نفسه الضالة المنشودة لوالديها، لكي يختاره شريكاً لحياتها، وحافظاً سيؤول إليها من ثروة الأسرة ولقبها ومجدها.

– وفتحت عينيها على هذا الحلم الجميل، فرفعت ذراعيها عن الشرفة، وسرحت طرفها في النجوم المتألقة على صفحة السماء، وملأت رئتيها من هواء الليل البليل، ثم أطلقت من صدرها زفرة طويلة، وقالت تحدث نفسها:

حبذا لو صح هذا الحلم، أن فيرونا كلها ليس فيها من يستطيع أن يداني ذلك الفتى في وسامته ورقته وظرفه، وما أسعد قلبي إذا قدر له أن يتحد مع قلبه.

وتولتها رعدة خفيفة، وتدحرجت على خدها دمعة ما لبثت أن أعقبتها دموع لم تعرف أهي دموع الأسف على فراق ذلك الفتى النبيل الجميل، أم هي دموع الفرح والسعادة والأمل في تحقق ذلك الحلم.

وغادرت الشرفة أخيراً، وذهبت إلى فراشها فألقت بنفسها عليه، وأطبقت جفنيها من جديد.. وراحت تنشد النوم لعلها أن تجتمع بفتاها في الأحلام، ولكن طيفه لم ينتظر حتى تنام، بل سرعان ما عادت صورته فارتسمت على لوحة مخيلتها، فلم تتمالك نفسها من الابتسام. وزاد في ابتسامتها، أن تذكرت في هذه اللحظة أن جميع المدعوين إلى الحفلة، لابد أن يكونوا من أصدقاء الأسرة وأعوانها، فلم يكن إذن بينهم غير هؤلاء، اللهم إلا حاكم المدينة وبعض تابعيه، وليس فتاه أحدهم على أي حال، وعلى هذا ليس بعيداً أن يتحقق حلمها، وأن يكون ذلك الفتى هو من ينشده لها أبواها الحبيبان لترشف معه كؤوس السعادة والصفاء.

وأخذها النوم وهي ما زالت تبتسم غبطة بهذا الخاطر السعيد.

شعور متبادل

عاد روميو إلى قصر أبيه، وأوى إلى فراشه وما زالت صورة جولييت تملأ أقطار ذهنه، ولم تطل ليلته لكنه لم ينم، وبقي طيفها الجميل وصوتها ذو الرنين المنعش، ورقصها المرح المحبب الرتيب، الشغل الشاغل لقلبه وعقله حتى الصباح.

على أنه نهض خفيفاً نشيطاً، واستهل يومه الجديد بالتفكير في جولييت، ورسم الخطط للقائها في أقرب وقت مستطاع.

وأعانه صديقه مركوتشيو بقدر ما استطاع، مخلصاً له النصح، حريصاً على سعادته وسلامته، ولكن الخطط التي رسماها لم تنل رضاء روميو، وأمضى الأسبوعين التاليين وهو ما زال يفكر ويدبر ولكن دون جدوى.

وانحصر اختياره أخيراً في وسيلتين اثنتين: إحداهما أن يتسلق إليها أسوار قصر أبيها أو حصنه الحصين ويرشو الحراس والخدم إذا اقتضى الأمر ذلك، والأخرى أن يأتي البيوت من أبوابها ويلتزم جانب الصراحة اللائقة بكرامته وكرامة أسرتيهما فيطلب الزواج بها.

وآثر أن يبدأ بالوسيلة الأولى، وإن كانت أخطر وأصعب، فقد خشي أن يقوم العداء المستحكم بين أسرتيهما سداً في وجهه من أول الأمر.

وبقي حتى صباح اليوم التالي وهو على هذا الرأي، وكان اليوم يوم أحد فارتدى ثيابه وغادر القصر مبكراً، ليصلي في الكنيسة كما اعتاد.

على أنه لم يذهب إلى كنيسة "الثالوث المقدس" التي يتبعها، بل توجه تلقاء (كنيسة الرسل) المجاورة لقصر آل كابلليتي.

ودخل الكنيسة دون أن يعرفه أحد، فقد كان في ثياب بسيطة، وأكثر وجهه تغطية قبعته، ثم اتخذ مجلسه في ركن قصي بجانب عمود ضخم وأخذ يسرح بصره في وجوه الحاضرين والحاضرات عسى أن تكون بينهم.

ولكنه لم يجدها، وقد تحقق ذلك برغم قلة الضوء في الكنيسة، إذ كانت

أشعة الشمس لا تدخلها إلا بمقدار ما يغطى زجاج النوافذ من صور ملونة للقديسين بين حمراء وصفراء وزرقاء، وبرغم كثرة الأعمدة الضخمة، والشمعدانات الهائلة التي تحيط بالمذبح القائم في أقصى المكان، وترسل حوله أضواءها الحمراء والصفراء.

وتعلقت عيناه بالباب، ولكن أحداً لم يدخل منه، فحدثته نفسه بأنها حضرت مبكرة وانصرفت قبل حضوره.

ثم تذكر أن قصر أبيها به كنيسة صغيرة ولعلها صلت فيها.

وبقي روميو هنالك وقتاً غير قصير فيها لمثل هذه الوساوس والأفكار، ثم أفاق من حيرته وقلقه على سماع أصوات المرتلين، وبدأ الكهنة يتناوبون الصلاة والمرتلون يرددونها وراءهم، بينما أنغام الأرغن ترن في جوانب الكنيسة وكأنها عاصفة تزأر من بعيد، وسحائب الدخان المتصاعد من المباخر تنعقد في الجو فتشيع فيه رائحة عبقة تزيد في خشوع المصلين.

ولاح له في هذه اللحظة أنه اقترف إثماً كبيراً وخالف وصايا الله، لأن بحثه عن تلك الفتاة، وإن كان يحبها حباً طاهراً، لم يكن ينبغي له أن يقوم به إلا بإذن من والديه.

وصادف أن كان أحد الكهنة في تلك اللحظة يتلو صلاة تنهي عن الخداع والاستماع لوحي الشيطان الدي يوقع الناس في فخاخ الخطيئة من حيث لا يشعرون، فاقشعر جسمه وساوره الندم على أنه لم يفطن إلى ما في عمله من مجافاة لتعاليم الدين والاحترام الواجب للكنيسة.

وفيما هو كذلك، حانت منه التفاتة، فإذا به يغفر فاه، ويكاد ينهض

معلناً عن شدة غبطته، فهناك على قيد خطوات من الركن الذي جلس فيه، كانت جولييت جالسة تستمع للصلاة مطرقة في خشوع وسكون.

وحينما رفعت رأسها بعد قليل، تلاقت نظراتهما، فكاد قلبه يقفز من بين ضلوعه، ولحظ رعشة خفيفة اعترتها حينذاك، كما لاحظ أن أحد حاجبيها ارتفع قليلاً، وأن خديها تضرجا بحمرة محببة، ولمعت على شفتيها ابتسامة عذبة تنبئ بالرضا والابتهاج.

وهكذا بدت جولييت في عينيه أجمل و أروع ما رآها من قبل.

ولم يحول بصره عنها منذ تلك اللحظة، أما هي فعادت إلى إطراقها وخشوعها، ولكن قلبه حدثه مؤكداً أنها عرفته كما عرفها، وأنها تفكر فيه كما يفكر فيها، وجاء الدليل العملي على صحة ذلك في الدقائق التالية، إذ أنها حاولت مرتين أن تختلس النظر إليه، وكان واضحاً من ردها طرفها في خفر وحياء، ومن قلقها

في مكانها، عدا ما طالعه في عينيها.. كان واضحاً من هذا كله أنها تبادله شعوره، وأنها لا تقل عنه فرحاً بهذا اللقاء.

وانتهت الصلاة أخيراً، فنهض روميو واتخذ طريقه إلى باب الخروج في خفة ونشاط.

في سباق الزوارق

لم يكن لروميو من هم بعد ذلك اللقاء غير المنتظر في الكنيسة إلا أن يفكر في أمر جولييت، وفي اتخاذ الوسائل التي ترفع قدره عندها، وتقوي في

فؤادها ذلك الشعور المتبادل الذي رآه في نظراتها إليه.

وكان شباب المدينة قد أزمعوا في تلك السنة، إقامة مباريات رباعية عامة فيما بينهم، لنيل البطولة في الفروسية والمبارزة وغيرهما، على أن يكون بعضها في البر، وبعضها في زوارق خاصة في نهر الأديج، فاعتزم روميو أن يشترك في أكثر هذه المباريات، على أن تشهدها جولييت فيمتع عينيه بمرآها، وترى بعينيها شجاعته وبراعته وتفوقه على الأقران في حومات النزال والطعان.

وأدلى بذلك إلى صديقه الوفي مركوتشيو، فاستحسن فكرته، وقال له:

– إنه لا شك في أنها تبادلك الحب، ولكن مشاهدتها انتصاراتك في المباريات القادمة ستجعل لك في قلبها مكاناً أسمى وأقوى، فلا يمكن بعد ذلك أن تسلو هواك.

وبدا البشر في وجه روميو، ثم قطب جبينه فجأة وقال:

– أخشى ألا يسمح لها والداها بحضور المباريات، أو أن تؤثر هي على مشاهدة المعارك التي تدور فيها، لخروجها للتنزه في الحقول والبساتين.

ففكر مركوتشيو قليلاً ثم قال له:

– ما أظن أن والديها يمنعانها، ولكنها بطبعها تؤثر المناظر الخلوية الجميلة، وينبغي أن نشوقها إلى حضور المباريات.

فسأله روميو في لهفة: "كيف السبيل إلى ذلك؟"

فقال: "هذه مهمة يسيرة، وسأتولى القيام بها، فاطمئن من هذه الناحية".

فلم يتمالك روميو عواطفه، وأغرورقت عيناه بدموع الفرح والشكر، إزاء تطوع مركوتشيو للقيام بهذه المهمة.

وفي اليوم التالي، توجه مركوتشيو إلى قصر آل كابلليتي، وأخذ يحوم حوله محاذراً أن يثير أي ريبة في أمره، ثم تلطف في الاتصال ببعض الخدم، ونفحهم بعطية سخية من المال، وأعرب لهم وهو يتظاهر بشدة الحياء والإحجام أنه يحب زميلة لهم لا يعرف اسمها، ووصف لهم الخادمة الخاصة بجولييت.

وتلقى الخدم اعترافه هذا بغير قليل من السخرية والاستهزاء، لكنه تحمل ذلك صابراً، ومضى في تمثيل دوره، وفي اكتساب عطف أولئك الخدم بكل ما عهد فيه من ذكاء ودهاء وسخاء، إلى أن لانت له قلوبهم وتطوع أحدهم لمعاونته على لقاء الخادمة التي زعم أنه يحبها، وكانت هذه من السذاجة بحيث جارت عليها حيلته، فتلقت غزله وحبه المصطنع لها بأحسن القبول، ولم يفترقا إلا على موعد للقاء جديد.

وفي هذا اللقاء الثاني، استطاع مركوتشيو أن يحمل تلك الخادمة الساذجة على أن تدبر له وسيلة إلى مقابلة أوزيبيا مرضع سيدها، زاعماً أن زميلاً له وقع في غرام هذه الرضع، وأنه يسره أن يتوسط لديها لكي تستجيب لغرام زميله.

وما كاد مركوتشيو يخلو إلى أوزيبيا حتى بدأ يمثل أمامها دوراً جديداً، فزعم لها أنه هو نفسه الذي تيمه حبها وأضناه، وأنه إنما تظاهر بحب تلك الخادمة لكي يصل بوساطتها إلى لقائها هي وبثها ما يجد من هيام بحبها وإعجاب بجمالها.

وكانت أوزيبيا قناة متدينة مستقيمة لم تحب أحداً في حياتها غير سيدتها جولييت، ولم يسبق لها عهد بسماع عبارات الإعجاب بها والتودد إليها، ولهذا سرعان ما لعبت عبارات مركوتشيو بلبها، وشعرت بقلبها يهتز طرباً وإعجاباً بالفتى المحب الوسيم الذي ساقته إليها الأقدار، على أنها برغم ما تملكها من الزهو والفخار بأنها أسرت فؤاده، جاهدت لإخفاء عاطفتها الثائرة، ولم تشأ أن تبت في الأمر، واعدة بأن تفكر فيما عرضه عليها مركوتشيو، ثم تنبئه بما يستقر عليها رأيها في المقابلة التالية.

ولم يشك مركوتشيو في أن المرضع الفقيرة المحرومة من الحب قد استجاب قلبها الطيب لنداء حبه التمثيلي الزائف، فاكتفي بأن قال لها وهو يهم بالانصراف.

– إني سأشترك في المباريات التي ستقام بالمدينة عماً قريب، ولا شك في أنها ستكون مباريات ممتعة مسلية تسر الناظرين.. و يا حبذا لو حسنت لسيدتك جولييت أن تحضرها لكي يتسنى لك حضورها معها. فليس هناك ما يسعدني أكثر من أن أشعر وأنا أنازل المنافسين حينذاك بأن عينيك الجميلتين تتابعني نظراتهما وتنفخ في قلبي روح الشجاعة والإقدام فيسهل علي الانتصار.

وشد ما كانت فرحته حين لقيها في المرة التالية، فإذا هي تصرح له بأنها استطاعت إقناع جولييت بحضور المباريات إذا سمح لها بذلك والداها، ثم قالت له وهي تغالب حياءها:

– على أني لم أجد من المناسب أن أخاطبها منذ البداية في شأن

اصطحابها إياي إلى شهود المباريات، وأرجو أن أتمكن من إقناعها بذلك بعد حين.

وكانت فرحة روميو أشد، حين قابله مركوتشيو بعد ذلك وزف إليه البشرى بأن جولييت وعدت بأن تشهد المباريات.

أخذت مدينة فيرونا تواصل الاستعداد للمباريات المختلفة بين شبابها، وطاف المنادون بأنحائها طول الأسبوع السابق للمباريات، داعين النبلاء والأعيان وغيرهم إلى الحرص على ألا يفوتهم الاشتراك فيها، وإظهار حفلاتها بالمظهر الرائع اللائق بها، وكان بعض المنادين يستغلون جياداً مطهمة مسرجة، ومن خلفهم بعض الفتيات الجميلات.

واكدت حرص السيد برتولوميو ديللا سكالا حاكم المدينة على أن يشرف بنفسه على تنظيم كل مباراة، بالتثبت من شخصيات النبلاء المشتركين فيها، وحث النبلاء الآخرين على مشاهدتها ومعهم أسراتهم.

وبدأت المباريات بمعارك الزوارق في نهر الأديج، فاصطفت زوارق المتبارين في الحوض الطويل بين الجسر المؤدي إلى البندقية في الشمال والجسر المؤدي إلى مانتو في الجنوب، وأقيم وسط ذلك الحوض صندل كبير، أعدت فوقه منصة عالية لجلوس حاكم المدينة وحاشيته وخاصة أصدقائه، وإلى يمينه جلس فريق الإمبراطوريين وفي مقدمتهم آل مونتيكي، وإلى يساره فريق البابويين وفي مقدمتهم آل كابلليتي، وقد بدت جولييت بين والديها مرتدية أفخم الملابس مثلهما، ووجهها يتهلل بالبشر والحبور، ووقفت أوزيبيا خلفها وفي يدها مروحة لتروح بها على وجه سيدتها إذا اقتضى الأمر ذلك أثناء المباراة.

وازدحم شاطئ النهر في تلك المنطقة بأكثر أهل المدينة الذين بكروا بالتوجه إلى هناك قبل الانتهاء من إقامة القداس، ووقف كثير منهم على الأسوار والأسطح المطلة على الحوض، وامتلأ الجو بضجة نصايحهم وتبادلهم التحيات والأحاديث، وتبادلهم الشتائم واللكمات أحياناً.

ووقف حرس الحاكم، وحملة سلاحه، والمنادون التابعون له، بين فريقي الإمبراطوريين والبابويين، ليحولوا دون نشوب أي عراك بينهما، في حين كان هو يوزع تحياته وابتساماته على الفريقين بالعدل والقسطاس.

وأخيراً نفخ في الأبواق إيذاناً ببدء المباراة، فانطلقت الزوارق إلى عرض النهر، وكل منها يقوده ثمانية من الملاحين، بأيديهم مجاديف حمراء، أو فضية اللون، وعلى ظهورها وقف النبلاء الشبان بثيابهم الملونة الزاهية الفضفاضة، متوثبين للنزال.

وتابعت جولييت بنظراتها تلك الزوارق، وكانت نفسها قد حدثتها بأن ذلك الفتى القوي الجميل الذي راقصته في الحفلة ولمحته بعد ذلك في الكنيسة المجاورة لقصرها، قد يكون بين المتبارين، وكان وجهها وهي تبحث عنه يعلوه الابتسام حيناً، والجهم حيناً، بحسب ما يصوره لها الخيال من انتصار الفتى أو فشله في المباراة.

ولمحته أخيراً في زورقه المنطلق به إلى المعمعة، وقد وقف منتصب القامة، مشرق الوجه، بادي القوة والجرأة والثبات، ورأته أوزيبيا في اللحظة نفسها فربتت كتف جولييت وأشارت لها نحوه قائلة:

– انظري يا سيدتي.. انظري، ما أروع هذا النبيل الشاب ذا الثوب الأخضر!

وصاحت بها جولييت محتدة قائلة دون أن تحول نظرها عن روميو:

– اسكتي.. لا تتكلمي وانظري فقط!

وعرفت جولييت منازل روميو، فقد كان نبيلاً عملاقاً من آل كابلليتي.

ثم ترامت إلى سمعها هتافات النظارة، وبعضهم يهتفون قائلين: "كابلليتي" وبعضهم يرددون اسم "مونتيكي" فاشتد خفقان قلبها، وأدركت لأول مرة أن فتاها ذاك من آل مونتيكي أعداء أسرتها القدماء الألداء.

واشتبك الشابان في عراك عنيف مثير، وبذل كل منهما محاولات عدة للإيقاع بمنافسه، ومضت فترة رهيبة بلغت فيها ضجة النظارة أشدها، وقبل أن تنتهي الجولة الأولى تمكن روميو من مغافلة منازله العملاق وأوقعه على ظهر زورقه بين الهتافات العالية والتصفيق الشديد.

وما بدأت الجولة التالية، حتى كشر العملاق منازل روميو عن أنيابه، وتحفز للانقضاض عليه لينتقم لنفسه، واشتدت ضجة المشجعين من آل كابلليتي وأعوانهم؛ وخيل إلى جولييت أن ذلك الانتقام سيكون هائلاً مروعاً، فراحت تحدق في الشابين مرتاعة ذاهلة، وما هي إلا لحظة يسيرة ريثما وثب قريبها العملاق لينقض على منافسه المتربص في هدوء، ثم إذا بهذا يزوغ منه في حركة خاطفة غير متوقعة، فهوى العملاق في الماء، بعد أن رسم بجسمه الضخم نصف دائرة في الهواء.

وصفق النظارة طويلاً، وعلت الهتافات للبطل المنتصر روميو مونتيكي، فالتفتت جولييت إلى أوريبيا وهمست قائلة لها بصوت مرتجف:

– أرأيت يا أوزيبيا.. هذا الفتى الذي انتصر على رجلنا اسمه روميو.. روميو مونتيكي.. ألا تسمعين؟!

وبقيت أوزيبيا صامتة، وقد جحظت عيناها، وفغرت فاها، ثم غمضت قائلة:

– روميو؟.. اسمه روميو، ومن آل مونتيكي؟!

ثم زفرت زفرة حرى، وأضافت الى ذلك قائلة:

– فليكن ما يكون!

وعجبت جولييت من أمر مرضعها، ولم تدر سبب ذهولها وقلقها فأشاحت بوجهها عنها، ومضت تتأمل روميو وهو ما زال واقفاً في زورقه ملوحاً بذراعيه رداً لتحيات الجماهير التي طغت عليها الحماسة بعد انتصاره الرائع، ثم قالت تحدث نفسها:

– نعم.. اسمه روميو، وهو من أل مونتيكي.. فليكن ما يكون.

وانتهزت أوزيبيا فرصة انشغال سيدتها عنها، فسارعت إلى رسم علامة الصليب على وجهها خفية، وأخذت تتمتم ببعض عبارات الشكر للقديسة شفيعتها، وتحدث نفسها قائلة:

– لقد كذب علي إذ أخبرني بأنه سيشترك في مباراة اليوم، ولكن حسناً: قد أنقذني هذا من جنون محقق في هواه لو أنه كان صادق الوعد، وكان هو المنتصر الآن.

الفصل الخامس

القبلة الأولى

الفارس المنتصر

كان اليوم التالي قد حدد موعداً لإجراء مباريات متعددة مختلفة في سباق الخيل والخنازير وألعاب الفروسية في الميادين .

وقد حرص روميو قبل عودته إلى قصر أبيه في اليوم السابق على استكمال جميع الإجراءات المطلوبة لاشتراكه في مبارزة الفرسان، فقدم لمنظمي المباريات الأوراق التي تثبت أنه من النبلاء، ثم أعد جواده وخوذته ونيابة الخاصة بالمبارزة وسيفه وترسه وأصدر تعليماته إلى حاملي سلاحه ليكونوا على استعداد للتوجه معه إلى ميدان المباراة عند شروق الشمس.

وأمضى ليله يحلم بانتصاره الرابع في معارك الزوارق على عملاق آل كابلليتي، وبما وقر في ذهنه من استجابة جولييت لحبه وظهور ذلك جلياً في متابعته بنظراتها أثناء النزال، تلك النظرات المعبرة التي أغنته عن أي حديث أو تصريح.

ولم يكن لديه أي شك وهو يغادر قصر إلى الميدان في أنها ستكون هناك، ومن هنا لم يشأ أن يضع على سلاحه شعار آل مونتيكي كما تعود في مباريات مماثلة سابقة، واكتفى بالشعار العام لمدينة فيرونا.

وحينما سئل في ذلك أجاب بقوله:

– لا أريد أن يزعم أحداً فيما بعد أنني استعنت بشعار أسرتي ونفوذها السياسي على إحراز الانتصار.

والحقيقة أن روميو خشي أن يكون في وضع شعار أسرته على سلاحه ما ينفر آل كابلليتي، وقد تتأثر بهم جولييت فتنفر منه هي الأخرى منساقة في تيار العداوة التقليدية القائمة بين الأسرتين، وهذا ما ليس يرضاه.

وقد سبقه إلى الميدان كثير من النبلاء الشبان؛ ولكن أحداً منهم لم يظفر بمثل ما استقبله به النظارة من التصفيق والهتاف حين دخل ميدان المباراة على جواده ومن خلفه أحد أتباعه مدججاً بالسلاح.

وتريث قليلاً ليرد تحيات الجماهير، ولكن اهتمامه كان منصرفاً إلى البحث عن جولييت، وشد ما كانت سعادته إذ لمحها جالسة في مكانها بالأمس بين والديها إلى يسار حاكم المدينة، واكتفى كلاهما بأن تلاقت نظراتهما في لمحة خاطفة لكنها تحمل من المعاني كل ما تريده.

وتبارز النبلاء اثنين اثنين، ثم أربعة أربعة، وكان على الفارس المغلوب أو الذي يصيبه الإعياء ويرغب في ترك المباراة أن يزيح خوذته قليلاً إلى الوراء، وقد بارز روميو كثيراً من النبلاء واحداً واحداً، كما اشترك مرات عدة في مبارزات جماعية، ولم يحدث أن اضطر قط خلال هذه المبارزات الفردية أو الجماعية إلى زحزحة خوذته إلى الوراء.

والحق أن إعجاب النظارة ببراعة روميو في المبارزة وإحكامه تسديد الضربات الفنية إلى منازليه، لم يكن يقل عن إعجابهم بوسامته وأناقته، وابتعاده عن الزهو والكبرياء والخيلاء.

وفي الألعاب الختامية الجماعية للمباراة، كان روميو هو المجلي أيضاً، ولكن حدث قرب الانتهاء من تلك الألعاب أن هجم عليه أحد الفرسان من آل كابلليتي ووجه إليه ضربة من سيفه أودعها كل ما فيه من قوة وحقد ورغبة في الانتقام، وهنا امتقع وجه جولييت وتصبب العرق بارداً من وجهها، وكاد قلبها يقف لفرط جزعها، ولولا أن جف حلقها واحتبس صوتها في تلك اللحظة لأطلقت صرخة دوت في أرجاء الميدان وفضحت من أمرها ما كان في طي الكتمان.

على أن روميو، استطاع بمعجزة أن يروغ من تلك الضربة الغادرة، فأصابت جواده بدلاً منه، وكبابه جواده الجريح خلال عدوه بأقصى سرعته، وسقط هو تحت الجواد، لكنه ما لبث أن نهض منتصب القامة وضاح الجبين باسم الشغر، وخطا بضع خطوات في خفة ورشاقة، ثم وقف يرد تحديات الجماهير التي انطلقت هتافاتها تشق عنان السماء، وتطغي على الأبواق التي نفخ فيها إيذاناً بانتهاء المباراة.

وحينما اتجه ببصره إلى منصة الحاكم ليرد تحيته، التقت عيناه مرة أخرى بعيني جولييت، وشعر بأن في نظراتها ما هو أقوى وأعلى من كل هتاف وتصفيق.

وفي المساء أقيمت بقصر السيد مونتيكي حفلة كبيرة ابتهاجاً بالانتصارات الرائعة التي أحرزها وهو في مختلف المباريات، وامتلأ القصر على سعته بالمدعوين والمدعوات، وشرب الجميع حتى ثملوا رجالاً وسيدات، ولبثوا يشربون ويطربون ويرقصون حتى ساعة متأخرة من الليل.

وكان روميو يتلقى التهاني بما عهد فيه من وداعة وتواضع وحياء، ولم يشأ أن يشرب طول الحفلة إلا كأس واحدة، أبقاها

طويلاً فوق شفتيه وهو مسبل الجفنين، وعلى لوحة مخيلته صورة جولييت كابلليتي ترنو إليه وتبتسم، فيهتز تفرط غبطته وسعادته من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، ويخيل إلى ناظريه إنها فرحة بالانتصار في ميدان المباريات، وما هي إلا فرحة الشعور بالحب المتبادل والأمل في المستقبل المشترك المنشود.

أما جولييت، فعادت إلى قصر أبيها بعد انتهاء المباراة واعتكفت في غرفتها بعد أن بدلت ثيابها بمعاونة أوزيبيا، ولم يخف على هذه سر ابتهاج سيدتها ومرحها وتهلل وجهها، وطافت بذهنها صورة مركوتشيو ذلك العاشق المتيم الذي ما كاد يظهر حتى اختفى، فتنهدت وقالت لجولييت:

- إن الطقس اليوم كان جميلاً منعشاً كمناظر المبارزات التي شهدناها.

وحدجتها جولييت بنظرة فاحصة، فأدركت أن صدر المرضع الوفية ينطوي على سر تجاهد لإبقائه مكتوماً، ولم يكن لديها وقت لاستطلاع ذلك السر؛ فتلطفت في صرف مرضعها، لكي تخلو إلى نفسها في شرفتها، وتملأ رئتيها من هواء الليل الجميل البليل، وتستعرض بذاكرتها مناظر اليوم والأمس قبله، ولم يكن فيها منظر يخلو من وجه روميو.. روميو الجميل البطل الذي انتصر على كل منافسيه.

تحت شرفة جولييت

عجب مركوتشيو من أمر صديقه روميو حين اعتذر هذا من أنه لا يستطيع تمضية السهرة معه، وكانا قد اتفقا على ذلك من قبل.

وكانت حجة روميو إنه ما زال تعباً بعد الجهود التي بذلها في المباريات، فهو كذلك أشد حاجة إلى الراحة منه إلى اللهو والتسلية.

ولم يشأ مركوتشيو أن يكثر جداله في هذا الأمر، إذ أدرك أنه يريد أن يخلو إلى نفسه وإلى الذكريات العذبة التي خلفها في ذهنه لقاء جولييت، وعلى هذا غادره متمنياً له الراحة والعافية، وعاد من حيث جاء.

ولم تمض دقائق، حتى غادر روميو وحده قصر أبيه، ومضى يجتاز شوارع فيرونا الضيقة، آخذا طريقه إلى قصر آل كابلليتي، فلما بلغه راح يطوف حوله؛ ويتأمل أسواره محدثاً نفسه قائلاً:

– هنا نشأت جولييت وترعرعت، وهنا لقيتها في الحملة فغنينا ورقصنا معاً.. وتبادلنا نظرات الحب والإعجاب والإخلاص!.. آه ما أحلى عينيها!.. وما أروع ابتساماتها وأرشق حركاتها وإشاراتها!

وكانت المدينة كلها تغط في نوم عميق، وقد ساد المنطقة سكون الليل فلم يكن يسمع سوى نقيق الضفادع في الحقول والقنوات المجاورة، وبين الفينة والفينة يسمع وقع خطوات الحارس المسلح الساهر فوق سطح القصر وهو يمشي في تثاقل ليطرد عن عينيه النعاس.

وواصل روميو طوافه حول القصر، متستراً بظلال الأشجار القائمة بجانبه حتى لا تقع عليه عين الحارس في ضوء القمر الذي كان بازغاً حينذاك ووقف بعض الوقت تحت سقيفة هناك، ثم لاح له ضوء قنديل خافت ينبعث من غرفة ذات شرفة منخفضة لا يزيد ارتفاعها فوق سطح الأرض على عشرة أقدام، ولاحظ أن هذا الموضع من القصر ليس محصناً، فأخذ يسأل نفسه قائلاً:

– أهذه غرفة جولييت؟.. وعلى هذا القنديل يلقي أشعته عليها الآن وهي ممددة في سريرها وأهداب عينيها تظلل خديها؟..

ولكن لا.. لا يمكن أن تكون هذه الغرفة المتواضعة غرفة جولييت.

وبقي ساعة أو أكثر وعيناه لا تفارقان الشرفة الماثلة أمامه والقنديل المعلق خلفها، وحدثته نفسه غير مرة بأن يتسلق السور ويصل إلى تلك الشرفة، ولكنه كان يقدم رجلاً ويؤخر أخرى؛ وفي بعض الأحيان كانت جرأته تتغلب على إحجامه فيغادر مخبأه ويهم بتسلق السور، ثم يسمع وقع خطوات الحارس أو يخيل إليه ذلك، فيعاوده الإحجام ويكر راجعاً إلى مخبئه تحت السقيفة.

ولم يرجع روميو إلى قصر أبيه إلا حينما بدأت طلائع النهار تملأ الأفق فتفر أمامها جحافل الظلام.

وفي الليلة التالية، عاد روميو إلى مكانه بالأمر، وبقي ساعات في تلك السفينة يرقب منها الغرفة المضاءة ذات الشرفة المنخفضة القريبة.

وقوى شعوره في هذه المرة بأنها الغرفة الخاصة بجولييت، وإن لم يكن لديه على ذلك أي دليل.

وحينما دقت ساعات المدينة مؤذنه بانقضاء ساعتين بعد انتصاف الليل، تسلل خارجاً من مخبئه، ثم تريث قليلاً حتى تحقق أن ليس ثمة من يشعر بوجوده هناك، ثم واصل تسلله متجهاً إلى الشرفة وقد تعلقت بها عيناه، وكان الطقس حاراً، وضوء القمر يغمر القصر وما حوله من الحقول والبساتين.

وحدث في هذه اللحظة ما جعله يقف ذاهلاً حائراً فأغرا فاه لفرط دهشته وقد زايلته شجاعته وجرأته، فقد فوجئ، بفتح النافذة الصغيرة المؤدية إلى الشرفة وظهور جولييت خلفها بوجهها المشرق الوضاح.

وهم روميو بالرجوع إلى مخبئه، ولكن عيني جولييت اللماحتين استقرتا على شخصه، ثم سرعان ما هتفت قائله في صوت مرتعش النبرات:

– من هناك؟

و تسمر الفتى في موضعه، ولم يدر كيف يجيب، ولكنه خشي أن يزيد صمته في قلقها وخوفها، فنصب قامته الفارعة ورفع وجهه نحوها، ثم قال هامساً:

– اطمئني يا سيدتي.. اطمئني كل الاطمئنان.. إنني لا أريد لك إلا الخير، وأريده لك من صميم فؤادي، إنني أنا.. روميو!

وبقيت جولييت تحدق في وجهه هنيهة وقد انحنت قليلاً فوق حاجز الشرفة، ثم همست قائلة وقد عرفته.

– أنت السيد روميو مونتيكي؟!.. عجباً! ماذا أتى بك إلى هنا، وأي شيء تريد؟

فخطا روميو خطوتين نحوها، وهمس قائلاً:

– إن الليل لطيف هنا!.. وقد جئت لأنعش به قلبي وأمتع به عيني بعد أن جفاني المنام.

وملأت جولييت رئتيها من هواء الليل، ثم قالت له:

– أنا أيضاً لم أستطع النوم، وشعرت بأني في حاجة إلى هواء الليل، ولكن.. ثم سكتت ولم تتم عبارتها فأدرك إنها لم ترد أن تسأله مرة أخرى.

عما أتى به إلى ذلك المكان تحت شرفتها، وزاده هذا إيماناً بأنها تبادله الحب، فتنهد هو الآخر وقال لها:

– ما أجمل الطبيعة هنا وما أبدعها!.. أن القمر يرسل ضوؤه الهادئ على البساتين و الحقول والغدران، وهذا النسيم اللطيف يوقظ الزهور والرياحين من سباتها فتفتح عيونها للضوء وتبتسم وتتمايل فتملأ الجو فتنه وبهجة وعطراً..

ولمعت عينا جولييت، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة خفيفة ثم وضعت يدها فجأة على قلبها، وتراجعت قليلاً في موقفها خلف النافذة، وقالت في صوت ينم عن القلق والاضطراب.

– عم مساء يا سيدي!

وهمت بالتراجع، فابتدرها روميو قائلاً في لهفة وتوسل:

- سيدتي.. لا تحتجي عني هكذا! لا تجعليني أتهم نفسي بأنني حرمتك شيئاً كان ينعشك ويسعدك.

فتريثت ووقفت هنيهة جامدة كأنها تفكر في شيء، ثم عادت فانحنت على حاجز الشرفة، وهمست قائلة له:

– إن هواء الليل منعش، والقمر جميل، وليس أحب إلي من أن أبقى هنا ما دام هذا يسعدنا معاً!.. ولكن أبي يغضبه ولا شك أن يعلم أني أسهر

هكذا.. وإن غضبه ليكون أشد وأدعى أن علم بأني تحدثت إليك.

فقال لها روميو:

– لماذا؟.. ليس هناك مطلقاً ما يدعو إلى ذلك.. أنتي أجلك وقدرك ولا يمكن أبداً أن أنظر إليك كما أنظر إلى عدو.. هل تعديني أنت عدواً؟

فابتسمت جولييت، ثم قالت له:

- كلا؟.. أنا لا أعدك كذلك، ولكن التقاليد تقضي بأن أجتنب الاتصال بأي أحد من أسرتك – أنسيت ما بين أسرتينا من عداء مستحكم قديم؟

فقال لها: "لكنني لا يمكن أن أسمح لنفسي بأن أبغضك أو أخشاك".

قالت: "وأنا أيضاً لا أسمح لنفسي بأن أبغض أو أخشاك، غير أننا لا نستطيع أن نخرج على تقاليد أسرتينا، وهكذا أرادت الأقدار".

فسكت روميو هنيهة، ثم مط شفتيه وهز رأسه أسفاً وقال:

– صدقيني.. أن اسم الأسرة في اعتقادي لا دخل له فيما تكن الصدور والقلوب.. ولو أننا سمينا الوردة شوكة والشوكة وردة لظل عبير الوردة يفوح وينعش الصدور، وظلت الشوكة تجرح وتدمي وتوجع.

وكان روميو يتكلم بكل قلبه، وعيناه شاخصتان إلى جولييت، فما كاد يتم عبارته حتى رآها ترفع يديها عن حاجز الشرفة فجأة، ثم قالت له في صوت مرتجف فيه مزيج من الخوف والقلق والصراحة والإخلاص.

– إن قلبي يخفق أيها السيد، ويخالجني الشعور الآن بأن وقوفها معنا هنا في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل ليس مما يدعو إلى الاطمئنان.

ثم ازداد صوتها اضطراباً وتقطعاً وواصلت كلامها فقالت:

– نعم أيها السيد.. أني خائفة.. وأشد ما أخافه أن يكون مجيئك وحدك إلى هنا الآن إنما دفعك إليه ما تكنه أسرتك لأسرتي من العداوة والبغضاء، ولعل أحداً يأتي الآن فيرانا.. وحينئذ تفخر أنت وأسرتك بأنك استطعت أن تلحق العام بأسرتي، وأياً ما كان الأمر، أرجو أن تذهب، بل أنا أستحلفك أن تذهب.

وسادت فترة صمت وسكون، كانت جولييت خلالها تنتفض في وقفتها، والقلق والجزع يملأن جوانب نفسها، في حين شعر روميو بأن موجة من الشفقة والحنان تغمره من قمة رأسه إلى أخمص قدمه، وقال لها:

- كلا يا جولييت!.. إنني ما جئت إلى هنا إلا لأنني أجلك وأقدر مزاياك وشاكلك الحسان.. وإن أقصى ما أرجوه أن تثقي يا فتاتي الجميلة الفاضلة بحبي وإخلاصي الذين أشهد الله عليهما.

وبقيت جولييت تنتفض، ولكنها في الوقت نفسه عادت إلى موقفها الأول مسندة ذراعها إلى حاجز الشرفة؛ وعيناها معلقتان بشفتيه، فاستأنف كلامه وقال:

– لا تحرميني نعمة النظر إليك، ولا التمتع بحديثك؛ إنك تسعدينني حين أراك، وأن طيفك يبهجني حين أكون وحدي، إنني أضع حياتي كلها بين يديك ورهن إشارة منك.. فثقي بي يا فتاتي، وكوني على يقين من أن سعادتك هي سعادتي و كل أملي في الحياة، نعم إن العداء بين أسرتينا قديم مستحكم، ولكن ما ذنبي أنا وما ذنبك أنت في هذا؟.. ثم من يدري؟ أليس من الجائز

أن يكون فيما يعمر قلبينا من وفاء وإخلاص ومحبة، ما يذهب بأحقاد الأسرتين النبيلتين، ويضع حداً لما أنهكهما من المعارك والخصومات.

وشعرت جولييت شعوراً عميقاً بإخلاص روميو في حبها، وكانت تنظر إلى وجهه في ضوء القمر فتراه قد ازداد روعة وبهاء، وتحس أن صوته ينساب في أذنيها انسياب الأغنية العذبة اللطيفة، ويصل إلى قلبها في رقة وهدوء.

وقالت لنفسيها: "هنا قد تحققت أعز أمنية راودت خيالي، إن هذا الفتى النبيل الجميل يحبني حقاً.. ولم يخدعني قلبي حين أحببته منذ رأيته".

وهكذا وجدت نفسها قد اطمأنت إليه كل الاطمئنان ووثقت به كل الثقة، وبعد أن كانت تخشاه على نفسها وعلى أسرتها، صارت تخشى عليه هو أن يناله مكروه إذا شعر أحد بوجوده تحت شرفتها، واستبد بها هذا الشعور وملك عليها كل حواسها، فقالت له:

– أيها السيد النبيل: إني أصدقك.. ولكني مضطرة إلى أن أرجوك مرة أخرى أن تغادر هذا المكان حتى لا يراك إنسان، لأني أخشى أن يكون في بقائك خطر على حياتك.

واشتد تأثر روميو، وأحس أن حبها نفخ في روحه قوة جديدة كبيرة، فقال لها:

– لن أخشى أي خطر على حياتي ما دام قلبك معي وما دام حبك يؤنسني وأنا هنا في قربك أبعد من الخطر مني في أي مكان آخر، على أني أصارحك القول بأني لم أكن يوماً ما أشد رغبة في الحياة مني الآن، فقد كانت حياتي قلما تبعني إثماً استجابت السماء لتوسلاتي، وصار لي أن أؤمل في أن

نتحد معاً في حياة واحدة مشتركة سعيدة، فليس هنا من يستطيع أن ينتزع مني هذه الحياة.

واغرورقت بالدمع عينا جولييت، واشتد خفقان قلبها، ولكنها في الوقت نفسه لم يسعها إلا أن تبتسم إذ أحست في هذه اللحظة أن فيضاً من السعادة قد غمر كيانها كله، وفتحت فمها لكي تتكلم، لكنها لم تستطع لفرط تأثرها، فبقيت ساكتة ترنو إليه والدموع تنحدر على خديها.

وحينئذ مد روميو يديه فأمسك بعض أغصان النباتات المتسلقة الممتدة من شرفة جولييت حتى السور الذي يقف أدناه، وفي أقل من دقيقة كان قد تسلق السور وتخطى حاجز الشرفة فصار بجانب الغرفة، ثم ركع عند قدميها ورفع وجهه إليها وعيناه تفيضان بالدمع مما عرف من الحب.. ثم تناول يدها المرتجفة في تلطف وترفق وطبع عن أناملها قبلة طويلة حارة أودعها كل ما يختلج به فؤاده من حب صادق منزه مكين.

ولم ينبس هو، ولا هي، ببنت شفة.. ثم نهض وتخطى حاجز الشرفة إلى السور حيث هبط إلى مكانه الأول، ثم لوح لها بيده مودعاً وهو يبتسم فودعته بابتسامة أيضاً، وبقيت تتبعه بنظراتها حتى اختفى في ثنيات الطريق.

قبلة مع النسيم

لم يتفق روميو وجولييت على موعد يلتقيان فيه من جديد، فقد أذهلتهما عن ذلك نشوتهما بفرحه ذلك اللقاء الأول السعيد.

ومضت هي يومها ساعية مفكرة، وكانت تشعر بأنها غريبة في قصرها بين آلها وخدمها، لكنها في الوقت نفسه تشعر بأنها أسعد كثيراً مما كانت،

وبأنها برغم الهمود الذي انتاب جسمها وأرخى مفاصلها، لم تكن في يوم من الأيام أقوى وأصح مما هي في ذلك اليوم.

وأمضى هو يومه في قصر أبيه معتكفاً في غرفته لم يذق أي طعام، ولم يكد يفهم شيئاً مما وجه إليه من كلام، فقد كان هناك بجسمه فقط، أما قلبه وعقله فكانا محلقين هناك عند شرفة جولييت.

وفي أصيل ذلك اليوم آوت جولييت إلى غرفتها، وتمددت في سريرها ثم أطبقت جفنيها وأسلمتهما إلى سنة من النوم، تخللتها أحلام جميلة لطيفة كان روميو هو المحور الذي تدور حوله كل وقائعها ومشاعرها.

وحينما جاءت مرضعها أوزيبيا تدعوها إلى العشاء، اعتذرت بحاجتها إلى النوم والراحة، وصرفتها متلطفة لكي يخلو لها وجه روميو في تلك الأحلام.

وانقضت ساعات وهي تتقلب في فراشها، مستغرقة في أحلامها اللذيذة بين اليقظة والمنام، ولم يكن ثمة ما يقطع عليها ما هي فيه إلا دقات ساعات المدينة من ساعة إلى ساعة، فلما دقت هذه الساعة دقتين اثنتين بعد منتصف الليل، أخذ قلبها تتسارع دقاته، وساورها قلق شديد، وشعرت فجأة بأنها تكاد تختنق لشدة الحر، مع أن الجو في تلك الليلة كان غاية في الاعتدال.

ولم يسعها الا أن تنهض وتغادر فراشها متجهة إلى النافذة المؤدية إلى الشرفة، ثم فتحها وألقت نظرة على الأفق الممتد أمامها، فأحست غير قليل من الانتعاش، وما لبثت أن اتجهت ببصرها على غير إرادة منها

إلى أدنى السور تحت الشرفة حيث كان روميو الحبيب يقف مناجياً إياها

بالأمس، وما كادت تفعل حتى ندت من صدرها آهة خافتة، وتسمرت في مكانها وعقدت الدهشة الممزوجة بالفرحة لسانها؛ وبقيت شفتاها منفرجتين دون كلام، وعيناها تحملقان، وقلبها يخفق خفقان الارتياح والحبور.

لقد جاء روميو في موعد الأمس، وما كاد يراها في الشرفة حتى سارع في رشاقته المحببة فتسلق السور، وقبل أن تفيق من دهشتها كان راكعاً أمامها، وشفتاه على أناملها وعيناه تقولان لعينيها في لحظة ما لا يستطيع اللسان أن يلم به في أيام بل أعوام.

وبقي الحبيبان الشابان فترة غير قصيره يرفرف عليهما الصمت والسكون، واختلطت أنفاسها المتلاحقة بأنفاس النسيم المحمل بعبير الزهور والرياحين، وتقاطعت أشعة نظراتهما بأشعة القمر المطل عليهما من عليائه في جلال ووقار.

ثم تكلم روميو أخيراً. فأخذ يروي لها هامساً كيف نبت هواها في فؤاده، وكيف شغله منذ اللحظة الأولى عن كل شيء عداه، وبدله بحياته الأولى حياة أخرى هي شمسها وقمرها، وهي ثمارها وزهورها، ويقظتها ونومها وأحلامها.

وكانت جولييت تصغي إليه بكل جوارحها، ونظراتها وابتساماتها تستزيده، وتعلن سعادتها بما تسمع من همساته واعترافاته، فمضى يشرح لها ما حدث منذ رآها لتلك المرة الأولى صبية تلهو في حماية وصيفاتها بالنهر، ثم حينما سحرته بجمالها وأناقتها وغنائها ورقصها في الحفلة التي أقيمت بقصر أبيها، وسعية بعد ذلك للقائها في شوق ولهفة الى أن جمعتهما الصلاة في الكنيسة فأدرك من نظرتها أنها تكن له مثلما يكن لها، ثم اعترف بين يديها

بأنه سعى بعد ذلك في سبيل حضورها المباريات السنوية للمدينة، وكان حضورها أكبر مشجع له على إظهار أقصى ما في استطاعته من براعة في النزال، لأنه يؤثر الموت على أن تراه منهزماً غير جدير بالتقدير والإعجاب.

وكان واضحاً أن جولييت قد أولت روميو كل تقديرها وثقتها، وأنها قد عرفته حق معرفته، فلم يبق هناك ما يمكن أن تخشاه من ناحيته.

وفي بعض الأحيان، كان خيالها ينطلق محلقاً في أجواء المستقبل المجهول، فتتصور نفسها وقد حيل بينها وبين هذا الحبيب السبيل الجميل، بسبب ما بين أسرتيهما من خصومات وثارات، وحينئذ كانت تنتفض في وقفتها كما ينتفض العصفور الذي انقض عليه أحد النسور، ثم سرعان ما تبين أن ما روعها ليس سوى خيال، وأن روميو ما زال راكعاً بين يديها في شرفتها يناجيها ويشرح لها هواه وتفانيه في سبيل سعادتهما المشتركة، فيذهب عنها الروع، وتعود ابتسامتها المرحة إلى شفتيها؛ وتتابع همساته اللطيفة في جذل وابتهاج، بينما تحدث نفسها قائلة:

– كلا!. إن الأقدار أرحم من أن تحول بيني وبين عينيه الصافيتين الوادعتين، وأنفاسه الطاهرة التي تترجم عن قلبه الطيب الكبير.

وأخيراً، أمسك روميو يد جولييت بين يديه، ولمعت عيناه ببريق والعزم والمضاء، وقال لها:

– لقد خلقنا للحب، وخلق الحب لنا.. ولم يبق ثمة أي شك في اتحاد قلبينا وروحينا.. فأنت يا جولييت أمنيتي الكبرى في حياتي، وفي بقائك بجانبي تركزت كل رغباتي وأحلامي وأنا الآن أشعر كل الشعور بأنك تفهميني وتثقين

بي.. وتؤكد على ذلك عيناك الصادقتان، ويدك التي ترتعش في يدي الآن.

ثم رفع وجهه إلى السماء الصافية الأديم، وموكب القمر يسري عبر طريقه الفضي في تؤدة وسكون، وواصل كلامه فقال:

– أي جولييت الحبيبة.. إنني أشهد هذه السماء ذات الجلال، وأشهد القمر والكواكب المطلة علينا؛ والنسيم المرفرف بأجنحته حولنا، وأشهد الكون كله على أنك وحدك متجه أفكاري ومسبح خواطري، وغاية آمالي في الحياة، ومن أجل ذلك أرجو أن تعاهديني الآن على أن تكوني لي، كما عاهدتك على أن أكون لك ما حييت.

وسكت روميو، وتعلقت عيناه بشفتي جولييت في انتظار ما تقوله رداً على هذا الطلب الصريح.

وابتسمت جولييت، وجدت في نظراتها دلائل الارتياح والسرور، ولكنها بقيت ساكتة، ولم ترد بأية كلمة.

فاستأنف هو كلامه في لهجة كلها توسل وتضرع وقال لها:

– تكلمي يا جولييت، قولي.. إنك توافقين على أن يكون كل منا للآخر قلباً وقالباً حتى الموت.. تكلمي يا حياتي.. ماذا تخشين؟.. عاهديني كما عاهدتك على أن نكون زوجين.

وهنا قربت جولييت وجهها من وجه روميو، وقالت في صوت يفيض بالحب والحنان.

– روميو!.. أيها الحبيب الحنون.. إنني أحبك إلى أقصى ما يستطيع

إنسان أن يحب.. وهل أدل على ذلك من موقفنا الآن.. ألا ترى أني منحتك ثقة لا تقف عند حد.

تم غصت بريقها، وقالت وقد تهدج صوتها:

- أي روميو العزيز.. أن حبي لك ليس يعدله إلا إعجابي بخلالك النبيلة ومزاياك الجميلة.. ولولا هذا ما كان لي أن أجازف بسمعتي وكرامتي وكرامة أسرتي وأسارع إلى لقائك هذه الساعة أنت سليل آل مونتيكي، هنا في شرفتي، بقصر سيد آل كابلليتي.

وسكتت جولييت مرة أخرى، فشبثت روميو بيدها، ونظر إليها متوسلاً وقال:

- تكلمي يا جولييت، تكلمي.. أتقبلين أنت ابنة السيد كابلليتي أن تتزوجيني أنا.. أنا ابن السيد مونتيكي؟

وهنا اختلجت يدها بين يديه، وقالت له:

– نعم يا روميو.. أعاهدك على ألا أكون زوجة لأحد سواك، وأرجو أن تكون على يقين من أني على استعداد لأن أتبعك إلى أي مكان تشاء!

وهنا زحف روميو على ركبتيه وهو راكع أمامها، ثم مد يديه وأمسك ذراعيها، واجتذبها إليه في رفق وحنان، وطبع على خدها قبلة خاطفة حارة، ثم قال والنشوة تهزه هزاً:

– جولييت.. أنت معبودتي، وأنا عبدك منذ الآن!

وكان الفجر قد بدأت تباشيره تبدو في الأفق، وأخذت العصافير تغرد

على غصون الأشجار المحيطة بالقصر مستقبلة اليوم الجديد، فتحفز روميو للانصراف، ونهض من ركوعه فوقف أمام جولييت وابتسم لها من مودعاً، فمدت يدها إليه مبتسمة هي الأخرى.

ومضت هنيهة وهما متصافحان، وقد استغنيا بتبادل النظرات عن كل كلام، ثم لاحت له فكرة استحسنها فقال:

– ما رأيك يا جولييت؟.. إن السير برتولوميو ديللا سكالا رجل حازم صالح القلب، وأكبر همه كما تعرفين أن تتخلص فيرونا خلال حكمه من المعارك التي تقيمها الخصومات والأحقاد، فلماذا لا نضع حبنا في حمايته؟.. إنه ولا شك سيباركه ويرى في ذلك خير وسيلة إلى بلوغ تلك الغاية التي يسعى إليها.

وشاع البشر في وجهها، وقالت له:

– هذه فكرة حسنة لا شك في ذلك.

ووصل إلى سمعهما في هذه اللحظة وقع أقدام في الطريق الممتد إلى جوار القصر، فتراجعا من الشرفة مبغوتين، ثم سرعان ما تبين روميو أنها أقدام بعض العمال المبكرين إلى الحقول القريبة فابتسم واستأنف كلامه فقال لجولييت:

– إذن أنت توافقين على أن أزور السيد ديللا سكالا في قصره وأخاطبه في هذا الأمر؟

فلم تجبه أول الأمر، بل نظرت إلى ضوء النهار الذي بدأ ينتشر ويغمر

الأفق، ثم مرت بيدها على شعره ونظرت في عينيه وقالت له ويداها تدفع كفيه في رفق وتلطف:

– روميو!.. هيا.. إن الشمس آذنت بالشروق.. أنسيت ما قلته من أن حياتك لم تعد لها أهمية في نظرك؟.. هيا يا روميو.. بعدئذ أن تقابل الحاكم وتخاطبه باسمك واسمي بما تشاء.

فنظر إليها نظرة عميقة ضمنها كل ما يكنه لها قلبه، ثم هبط من الشرفة إلى السور فالطريق، والتفت إليها قبل أن ينصرف فرآها تنظر إليه من الشرفة وترسل إليه قبلة مع نسيم الصباح.

وساطة لم تتم

خرج روميو من قصر أبيه في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، وقد ارتدى أفخر ما عنده من الثياب، وأخذ يحث الخطى في طريقه إلى قصر حاكم المدينة.

واستقبله السيد برتولوميو مرحباً به كل الترحيب، وراح يكرر له تهنئته الحارة على ما أحرز في مباريات المدينة من انتصار رائع مبين.

وقال له روميو بعد أن شكره على تهنئة الرقيقة وحسن ترحيبه:

– إن الفضل الأكبر في نجاح تلك المباريات إنما يرجع إلى حسن عنايتكم ورعايتكم وشدة حرصكم على خير المدينة، وقد جئت الآن لأعرض اقتراحاً أعتقد أن تنفيذه يكسب المدينة كلها نصراً أكبر وأبقى وأليق بعهد حكمكم العادل السعيد!

ثم أخذ روميو يقص على الحاكم الحازم الطيب القلب قصة الحب الذي ربط بين قلبه وقلب جولييت ابنة السيد كابلليتي، ثم تعاهدهما على الزواج، واتفاقهما على اللجوء إليه ليستخدم نفوذه ومكانته في تمهيد السبيل لإتمام هذا الزواج الشريف، واتخاذه وسيلة إلى صلح دائم بين أسرتيهما، وبذلك يرفرف السلام والسعادة على فيرونا، ويتطهر جوها من الأحقاد والمعارك التي تفسده من حين إلى حين منذ عشرات السنين.

وأصغى السيد برتولوميو ديللا سكالا لاقتراح روميو في اهتمام كبير، والتمعت عيناه ببريق البشر والإعجاب، ثم قال له:

– إني أبارك حبكما الطاهر النبيل من كل قلبي، وليس أحب إلي من أن أسعى جاهداً لإتمامه، وإنك لتعلم يا بني كم سعيت وبذلت الجهود في سبيل التوفيق بين أسرتيكما الكبيرتين، وأؤكد لك أني سأبادر بانتهاز هذه الفرصة المباركة لمعاودة السعي في هذا السبيل، ولن أدخر جهداً يقربنا من غايته حتى نبلغها بتوفيق الله.

ولم يملك روميو عواطفه إزاء هذا الوعد الكريم، فاغرورقت عيناه بدموع الفرح والشكر، وقال:

– إن فيرونا كلها تعلم علم اليقين أنها في تاريخها الطويل لم تظفر بحاكم في مثل عدالتكم وحزمكم ونبل مقاصدكم وحبكم الخير للجميع، وأن أهلها على اختلافهم ليتحدثون بهذا في مجالسهم وخلواتهم، ومن أجل ذلك لم نجد ملجأ إلا إليك، وإني أسأل الله أن يوفق مسعاكم الحميد المبرور.

وابتسم له الحاكم شاكراً، ثم قال له:

– ليس يخفى عليك يا بني العزيز أن الشروع في أمر كهذا ذي شأن كبير، لابد أن تسبقه استعدادات خاصة وتمهيدات لدى كل من الأسرتين، ومن أجل ذلك ينبغي لك ولحبيبتك أن تتذرعا بالصبر، وأن تنقطعا عن اللقاء علانية أو خفية إلى أن يكتب لمساعينا النجاح المنشود، فهل أنتما على استعداد للعمل بهذه النصيحة؟

فظهر الارتباك في وجه روميو، ثم قال متلعثماً:

– إننا نشكر لسيدي الحاكم كل الشكر نصيحته الغالية الثمينة، ولا يخالجنا أدنى شك في حكمته البالغة التي اقتضتها، ولكن.. ألا يمكن الاكتفاء بامتناعنا عن اللقاء علانية؟

فابتسم السيد برتولوميو، وقال لروميو متلطفاً: أن هذا الذي تبديه من الصدق والصراحة، لما يزيدني إعجاباً بك وإيماناً في إخلاصك في الحب، وأنا أعلم دقة موقفكما وصعوبة امتناعكما عن اللقاء مع ما يعتلج في قلبيكما من الشوق الشديد، ولكن للضرورات أحكاماً قاسية، وهذا الصبر المرير الذي أنصح لكما بالتزامه هو تصالحكما قبل كل شيء.

وسكت روميو مكتفياً بالتنهد، وبدت الحيرة والحسرة في نظراته، فرقى الحاكم لحاله وسأله:

– ألست واثقاً من حبها لك، وبقائها على العهد؟

فأجاب روميو على الفور قائلاً:

– بلى يا سيدي، أنا واثق من إخلاصها كل الثقة، وقد تعاهدنا وأقسمنا لينتظرن كل من الآخر إلى ما شاء الله.

فقال له الحاكم: "حسناً!.. في استطاعتكما إذن ان يعتصما بالصبر حتى يأذن الله بالفرج، وأرجو أن يكون قريباً".

فتنهد روميو مرة أخرى، وأطرق هنيهة صامتاً مفكراً، ثم رفع رأسه وقال للحاكم:

- فلتكن مشيئة الله.. إنني أعدك يا سيدي بأن نحرص اتباع نصيحتك وأن نكون عند حسن ظنك، وأكرر لك الشكر باسم

جولييت واسمي على عنايتك الكريمة بأمرنا، وأسأل الله أن يجزيك عنا خير الجزاء.

ثم نهض مستأذناً في الانصراف، فودعه الحاكم بمثل ما استقبله به من الاحتفاء والتكريم.

لم يستطع روميو صبراً على فراق جولييت، فما وافت الساعة الثانية بعد منتصف الليلة التالية حتى كان في طريقه إلى شرفتها، وكانت هي تتوقع قدومه في تلك الساعة، ففتحت النافذة المؤدية إلى الشرفة وأطلت منها على أدنى السور القائم فإذا هو هناك يلوح لها بيده ثم تسلقه كعادته.

وعجبت لارتجاف يده وامتقاع وجهه وهو يلثم يدها، ثم عرفت السبب حين ركع بين يديها وراح يروي لها تفصيل مقابلته حاكم المدينة في الصباح،

وما وعده به من السعي في سبيل إتمام زواجهما على ألا يلتقيا علانية أو خفية حتى تظهر نتيجة ذلك السعي.

وارتجفت جولييت بدورها، وقالت له ويدها تربت شعره:

–كيف يكون هذا؟.. كيف لا نلتقي؟ وإلى متى؟

فتنهد ونظر إليها في حيرة قائلاً:

– هذه إرادته، وقد أكد لي أن ذلك لصالحنا قبل كل شيء، وأن في استطاعتنا أن نصبر ما دام كل منا واثقاً من حب الآخر وإخلاصه وبقائه على العهد.

فقالت له: "لكننا لا نلتقي إلا خفية، فأي شيء في هذا؟".

فقال: "حاولت أن أقنعه بذلك، لكنه أصر على وجهة نظره، ولم يسعني بعد أن لمست عطفه علينا ورغبته الصادقة في معاونتنا إلا أن أعده بأن نتبع نصيحته".

فتنهدت جولييت ونظرت إليه والحسرة تملأ جوانحها قائلة:

– إذن.. يجب أن نمتنع عن التلاقي بعد الآن، ما أقسى هذا أيها الحبيب!

فتكلف روميو الابتسام تشجيعاً لها وقال:

لقد وعدني السيد برتولوميو بألا يطول انتظارنا.. فصبراً يا حبيبتي وكل آت قريب!

فأطرقت هنيهة مفكرة في الأمر، ثم قالت له:

- لعل الحكمة فيما رآه الحاكم الطيب القلب، وما دمت أنت قد وعدته بأن تصبر، فلا مفر من الصبر مهما يكن قاسياً مريراً!

ولما حان موعد انصرافه، نهض متثاقلاً وأمسك يدها بين يديه بعض الوقت وهو ينظر في عينيها صامتاً؛ ثم طبع على أناملها قبلة حارة طويلة، وتدحرجت بجانبها دمعة لم يستطع إمساكها؛ فلم تستطع جولييت امتلاك عواطفها المهتاجة وشهقت بالبكاء، ثم افترقا وكل منهما يبتسم ليشجع الآخر بينما الدموع تملأ خديهما، وقلباهما يلتهبان خشية أن يطول الفراق.

ريم السيد برتولوميو ديللا سكالا خطة محكمة لإنجاز ما وعد به من السعي لإتمام زواج الحبيبين روميو وجولييت.

وبدأ خطته بزيارة كل من السيد كابلليتي والسيد مونتيكي عدة مرات، دون أن يصرح لأحد منهما بالغرض من زيارته، مكتفياً بالإشارة إلى رغبته الشديدة في أن يتم اتحاد أهل فيرونا، وأن يحل الوئام بينهم محل الخصام، ليتسنى لهم التعاون على ما فيه صالحهم وصالح المدينة العام.

وحرص خلال ذلك على محاولة إقناع كل من النبيلين بأن خير وسيلة إلى إتمام ذلك الاتحاد وإلى ضمان استقراره واستمراره هي أن ترتبط الأسرتان الكبيرتان في المدينة، وهما أسرة كابلليتي وأسرة مونتيكي، برباط مقدس يبقى على مر الأيام، ويمحو ذكريات الخصومة الماضية من سجل المستقبل.

وكان الحاكم الطيب القلب يتوقع أن تبدو من النبيلين أو أحدهما إشارة إلى استعداده لتوثيق العلاقات الودية بين الأسرتين عن طريق المصاهرة،

ولاسيما أن العادة جرت في ذلك العهد بأن تتصاهر الأسرات الكبيرة توثيقاً للروابط بينها، فلما تكررت زيارته لهما دون أن يحدث ما توقعه، دعاهما معاً إلى مجلسه في قصره ذات يوم، ثم طرق باب الأمر من جديد وقال لهما:

- ألا يوجد في أسرتيكما فتى وفتاة يمكن أن يضحيا بقلبيهما في سبيل مصلحة الأسرتين ومصلحة المدينة كلها، فنحتفل بزواجهما احتفالاً عاماً، يكون فاتحة لعهد جديد سعيد؟

ولم يجب أحد من عميدي الأسرتين من سؤال الحاكم، مما اضطره إلى إعادة السؤال، مع الإفاضة في بيان الفوائد الجليلة التي تترتب على مثل ذلك الزواج.

وهنا قال السيد مونتيكي:

– ليس لي سوى ولد واحد، ولكني على يقين من حرصه على تقاليد الأسرة وتشبثه بها، فمن المستحيل أن يستجيب لهذه الرغبة!

وقال السيد كابلليتي على أثر ذلك:

– إنني أقدر هذا الاقتراح كل التقدير، غير إني كما يعلم الجميع لي غير ابنة واحدة ما زالت دون سن الزواج، فلا سبيل إلى التفكير في زواجها إلا بعد سنين!

ولم ييأس السيد برتولوميو برغم ذلك، فاستمرت زيارته لكل من النبيلين، ودعوته إياهما إلى مجلسه، ليلح عليهما في وجوب التفكير جدياً في أمر ذلك الزواج لمصلحة الأسرتين والمدينة.

وكان روميو يتردد إلى قصر الحاكم خلال ذلك، ليقف منه على ما تم في الأمر، ثم يغادر القصر قلقاً حائراً كما دخله، وكلما لاحظ الحاكم عليه شدة الملل والضجر، شجعه قائلاً:

– رويدك يا روميو! واصبر فكل آت قريب!

واستمرت الحال على هذا المنوال ثلاثة أشهر، نفذ فيها صبر روميو، وأدركه اليأس من نجاح مساعي الحاكم، فذهب ليقابله في قصره آخر مرة ويصرح له بأنه لم يعد يستطيع الانتظار أكثر من ذلك، لكنه فوجئ بأن الحاكم طريح الفراش يعاني مرضاً خطيراً منذ ثلاثة أيام، وعلم من الأطباء الذين دعوا من البندقية وكريمونا لمعالجته أن ليس هناك أمل في شفائه.

وفي اليوم التالي، أذيع في المدينة نعي حاكمها الحازم الطيب القلب المحب للسلام، فجزع لفقده كل أهليها على اختلافهم، ثم نقل جثمانه إلى كنيسة سانت ماريا الأثرية ليلاً في ضوء المشاعل لشدة الحر بالنهار، ومشى خلف نعشه كل النبلاء والنبيلات ورجال الأكليروس وحملة الشموع والفنانون وجماهير لا يحصى عددها من الفقراء والمساكين، وكان الجميع يبكونه من قلوبهم ويذكرون عهده بكل خير.

والحق أن هذا الحاكم كان على عكس معاصريه، حكام العصور الوسطى، يبغض الاستبداد والأنانية، كما كان يغدق العطايا والهبات على كل قصاده من المحتاجين، وقلما مضى يوم دون أن يتوجه إلى الكنيسة للصلاة والتضرع إلى الله أن يؤلف بين قلوب المتنازعين من أهل المدينة، ويوفقهم إلى ما فيه خيرهم واطمئنانهم وسعادتهم، ومن هنا حزن عليه النبلاء

جميعاً لتوخيه العدل في معاملتهم سواء أكانوا مثله من حزب الإمبراطورين أم كانوا من حزب البابويين، وحزن عليه رجال الدين لشدة ورعه وتقواه ولأنه كان يجلهم ويحميهم من كل سوء وعدوان، كما حزنت عليه الطبقة الوسطى ومثلها الفقراء والضعفاء لما اشتهر به من حميد السجايا، والعطف على المرضى والعاجزين عن العمل والبائسين، والانتصاف لهم من الأقوياء الطغاة والأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها إلا في سبيل الترفيه عن أنفسهم وحدهم وبعدهم الطوفان.

ولا شك في أن روميو وجولييت كانا أشد أهل فيرونا حزناً على حاكمها الذي تركزت آمالهما في مساعيه لأجلهما لدى أسرتيهما الكبيرتين.

الفصل السادس

غياب وعودة

روميو في البندقية

استولت الكآبة على روميو بعد خيبة آماله بموت السيد برتولميو سكالا، وانقطع بقية الصيف وطول الخريف عن ممارسة الألعاب الرياضية والاشتراك مع زملائه من النبلاء الشبان في مختلف المباريات التي كانت أهم ما يشغل أمثالهم في ذلك العصر.

وجزع السيد مونتيكي لهذا التغيير الفجائي في حياة ولده الوحيد، وزاد في قلقه أن صحة روميو تزداد سوءاً يوماً بعد يوم، وأنه كثيراً ما يغادر القصر ليلاً ليهيم على وجهه في طرقات المدينة ولا يعود إلا في الصباح حيث يعتكف في غرفته ولا يكاد يغادرها طول النهار، عزوفاً عن الطعام والشراب.

وظن الأب الحزين أول الأمر أن ابنه وقع في حبائل الشيطان واستطاعت إحدى غانيات المدينة أن تعبث بقلبه ولبه وتجره إلى الطريق غير المستقيم، ولكن هذا الظن ما لبث أن تبدد حين علم من خادم القصر وغيرهم أن روميو ما زال كالعهد به تقياً نقياً يؤدي الصلوات ويحرص كل الحرص على كرامه وكرامة أسرته، وقد بلغ من طهره وتقواه أنه امتنع عن التردد إلى مجلس الغانية روزالندا منذ أشهر، بعد أن كان يمضي سهراته هناك مع من يضمهم مجلسها من النبلاء والفنانين.

على أن حالة روميو بقيت برغم ذلك تبعث الفسق والحيرة والأسى في نفس أبيه، وبقي هذا يتساءل عن الأسباب التي أدت إلى ذلك التحول العجيب في طباع روميو، دون أن يهتدي إلى جواب معقول.

وقالت له زوجته يوماً وقد لاحظت عليه شدة اهتمامه بهذا الأمر:

– لماذا تشغل نفسك بهذه الوساوس والأوهام؟.. أن روميو الآن في سن تسمح له بأن يتصرف بملء إرادته دون حاجة إلى وضعه تحت وصايتك، ومن حقه أن يعيش كما يحلو له، وما أظن ان هذه الحالة التي طرأت عليه إلا سحابة صيف تنقشع عما قريب.

ثم سألته: "هل سمعت بأنه اجترح ذنباً أو اقترف خطيئة؟".

فلما أجابها بأنه لم يسمع شيئاً من ذلك قالت له محتدة:

– إذن.. دعه وشأنه، وأرح نفسك من هذا العناء الذي لا طائل تحته.

فقال السيد مونتيكي وهو يهز رأسه حسرة وأسفاً:

– أهذا مبلغ حبك لوحيدك واهتمامك بأمر مستقبله؟

فقالت له: إن إلحاحك في التساؤل عن أسباب تغيره وانطوائه على نفسه ليس من الحكمة في شيء، وما دام أن هذه الحالة لم يترتب عليها إلا عزوفه عن المبارزات والمباريات التي هي أشد خطراً على حياته، فلا داعي البتة لكل هذا القلق والحزن".

وسكت السيد مونتيكي لا عن اقتناع برأي زوجته، ولكن لعلمه بأنها لا يمكن أن تنزل عن وجهة نظرها الخاصة في أي شيء، ومضت الأيام بعد

ذلك وهو لا يفتأ يفكر في أمر وحيده، ويجهد نفسه لإيجاد مخرج له من تلك العزلة الكئيبة التي أثرت في صحته وأذبلت شبابه وجماله وكادت تسلكه في عداد المخبولين، وإن كانت والدته لا تراها كذلك.

وأقبل الشتاء فهبت على فيرونا عواصف ثلجية شديدة، واكتست الطرقات والأسطح بطبقة بيضاء ناصعة، واضطر روميو إلى العدول عن الجولات الليلية التي تعود القيام بها، ولم يبرح غرفته طيلة الأيام الثمانية التي استمر فيها اشتداد العاصفة.

وتحسنت صحته قليلاً خلال هذه الأيام، ولكن أباه بقي يتألم من أجله، ولا يملك عواطفه فتبلل الدموع خديه ولحيته كلما وصلت إلى مسمعه في القصر ضجة الفتيان والفتيات الذين يمارسون رياضة الانزلاق على الجليد في الطرقات وكلهم في مرح وابتهاج، في حين قبع روميو ولده الحبيب بجانب النار الموقدة للتدفئة في غرفته الخاصة وكأنه شيخ عجوز حطمته الأيام وأرهنت قواه.

وكان يعلم أن مركوتشيو صديق مخلص لروميو، وأنه وحده الذي يزوره ويتحدث معه، فخلا إليه يوماً وأخذ يحاول استدراجه في الحديث للوقوف منه على ما عسى أن يكون عنده من معلومات تلقي الضوء على حالة روميو، ولكن مركوتشيو كان أذكى وأشد إخلاصاً لصديقه الحميم من أن يكشف لأبيه عن شيء مما يعلمه من غرامة اليائس المضني بجولييت ابنة السيد كابلليتي.

ورأى السيد مونتيكي أخيراً أن يهيئ لروميو رحلة إلى منطقة بعيدة

من فيرونا، لعل في ذلك ما يعاونه على تجديد قواه، ويرد إليه حياة المرح واللهو والنشاط، ثم علم أن قافلة من تجار المدينة تتأهب للسفر إلى البندقية في أوائل الربيع، فصح عزمه على اغتنام هذه الفرصة وإلحاق روميو بالقافلة، وسرعان ما خلا إليه وجلس يتحدث معه في شئون مختلفة، ثم سأله فجأة:

– ألا تحب يا ولدي العزيز أن تقوم برحلة لطيفة إلى البندقية؟ فبدت الدهشة في وجه روميو، وقال له:

– رحلة الى البندقية؟.. وما الداعي إلى ذلك؟

فقال السيد مونتيكي وهو يبتسم متلطفاً:

– إنها فرصة تتيح لك انتهازها أن تمتع بصرك بمناظر جديدة، وأن تختلط بأناس غير من تعودت الاختلاط بهم في فيرونا.

فمط روميو شفته السفلى وقال:

– لست أشعر بحاجة إلى شيء من ذلك!

فعاد أبوه يقول له:

- إن هذا لا يمنع أنك ستستفيد كثيراً من هذه الرحلة، وليس يخفي عليك أن تغيير الهواء وحده مما ينعش الجسم والنفس، عدا ما في الاختلاط بالغرباء من تنمية لثروة التجارب والمعلومات المفيدة في الحياة.

فنظر روميو إلى أبيه في شيء من الذهول، ثم قال:

– هذا حق يا أبي العزيز، ولكني لا أعرف في البندقية أحداً؛ لأني لم

أغادر فيرونا في رحة بعيدة مثل هذه من قبل، ولهذا أرى أن بقائي هنا أكثر فائدة لي.

ولم ييأس السيد مونتيكي، ومضى يتلطف في الحديث مع روميو؛ ويصف له بإسهاب فخامة مدينة البندقية، وقنواتها التي تقوم مقام الشوارع في المدن الأخرى وتحفل بزوارق العابرين والعابرات، عدا ما بها من قصور جميلة وألوان مختلفة للتسلية، بوصفها مدينة نصف تركية ونشف أوربية، ولذلك يجتمع فيها أروع مناظر الشرق والغرب.

ولما رأى أن وصفه أهاج في نفس روميو حب الاستطلاع، أخذ يضرب له على تلك النغمة، ويلح على سمعه بمختلف المغريات والمشوقات، إلى أن ظهر الاقتناع في وجهه، فأطرق هنيهة مفكراً ثم قال لأبيه:

– إن وصفك الجميل للبندقية جعلني أشتاق إلى مشاهدتها، وأنا أشكر لك يا أبي العزيز شدة اهتمامك بأمري ورغبتك الكريمة في الترفيه عني، ولكني أخشى ألا تحتمل صحتي المعتلة الآن مشاق الرحلة إلى هناك، ولهذا يحسن تأجيلها إلى فرصة أخرى.

واكتفى السيد مونتيكي بما وفق إليه من نجاح في تلك الجلسة، وفارق روميو على أن يعاود الحديث معه في ذلك الشأن بعد حين.

وكان روميو قد عاد إلى جولاته الليلية التي لا يعلم أحد أين تمضي به خلالها قدماه، وقد ذبلت وجنتاه، وانطفئ بريق عينيه، وصار يعاف اللحوم التي تقدم له على المائدة، ولا يكاد يقبل على شيء من ألوان الشراب التي كان يميل إليها من قبل.

وحمل هذا أباه على الإلحاح في محاولة إقناعه بالسفر إلى البندقية مع القافلة الذاهبة إليها، وشيد ما كان سروره واغتباطه إذ تكللت محاولاته هذه بالنجاح، فوافق روميو على القيام بتلك الرحلة، وشرع يعد حقائب السفر، ويختار من يأنس إليهم من الحراس والخدم لمصاحبته فيها.

وبعد أيام خرجت القافلة من فيرونا وبينها روميو ومرافقوه تحملهم ثلاث عربات ومعهم كل ما يحتاجون إليه من المعدات، ولم يكن يبدو عليه شيء من الابتهاج الذي غمر وجوه بقية أفراد القافلة والشبان الذين صحبوها للتنزه والاستجمام، ولكن أباه كان يرجو أن تزايله تلك الكآبة بعد أن يمعن في الرحلة وتقع عيناه على ما في البندقية من مظاهر جميلة رائعة.

خطيب غير مرغوب فيه

كان روميو وجولييت بعد موت حاكم فيرونا قد تحللا من العهد الذي ارتبطا به إزاء مساعيه لإتمام زواجهما، فعادا إلى التلاقي والمناجاة خفية في شرفة غرفتها، كما كان شأنهما قبل ذلك.

والواقع أن فشل تلك المساعي لم يزدهما إلا تفانياً في الحب والإخلاص، ولكن مشكلتهما كانت تزداد تعقيداً بمضي الأيام، إذ لم يكن في استطاعتهما أن يخرجا على تقاليد أسرتيهما النبيلتين الكبيرتين، وفي الوقت نفسه كان من المستحيل عليهما أن يستعينا على حل تلك المشكلة بأي إنسان آخر بعد ذلك الحاكم الطيب القلب، مخافة افتضاح أمرهما، وما يترتب عليه من تفاقم العداوة بين أسرتيهما وبين أعوان هذه وتلك من حزبي الإمبراطوريين والبابويين.

ومن هنا ساءت صحة الحبيبين، وأخذ شبابهما الناضر في الذبول، وانطوى كل منهما على نفسه، زاهداً في الحياة وكل ما فيها.

وكانت السيدة كابلليتي أكثر عطفاً وحناناً على جولييت من أبيها، بعكس روميو الذي كانت أمه أقل عطفاً وحناناً عليه من أبيه، وعلى هذا كان لتبدل حال جولييت من الإشراق والمرح إلى التجهم والانزواء أكبر الأثر في نفس والدتها، فأخذت تبذل كل ما في وسعها لإنقاذها من هذه الحالة المحزنة المؤلمة، ولكن محاولاتها كلها لم تسفر عن أية نتيجة مرضية.

أما السد كابلليتي، فلم يعر تغير حال ابنته اهتماماً كبيراً أول الأمر، وكان يقول لزوجته كلما خاطبته في هذا الشأن:

– هذا مرض بسيط لا يلبث قليلاً حتى يزول.

ولما طال مرض جولييت واستعصى علاجه، جاء السيد كابلليتي إلى زوجته يوماً متهلل الوجه بادي الغبطة وقال لها:

– لقد اهتديت إلى أحسن علاج لمرض جولييت.

ثم أخذ يروي لها وهو يهتز طرباً و حبوراً أن جولييت قد خطبها إليه السيد "بياترو رونزولوني" صاحب الضياع والمزارع الواسعة في ضواحي فيرونا وصاحب القصر الأنيق القائم وسط تلك المزارع بين الحدائق الغناء الحافلة بالنباتات النادرة والأزاهير الجميلة العاطرة وحظائر الخيل وأقفاص الوحوش العجيبة التي اصطادها في رحلاته البعيدة الجريئة التي يتحدث عنها الجميع معجبين.

ولم يسع السيدة كابلليتي إلا أن تتلقى نبأ هذه الخطبة السعيدة بالجذل والاغتباط والشكر لله على أن وفق ابنتها إلى زوج نبيل ثري مقدام.

وقامت من فورها فتوجهت إلى غرفة جولييت حيث وجدتها جالسة خلف النافذة المؤدية إلى الشرفة، وبصرها معلق بالأفق في ذهول.

ثم ابتدرتها قائلة وهي لا تملك إخفاء سرورها.

– ما رأيك يا جولييت، ألا ترغبين في الزواج؟

وبغتت الفتاة لهذا السؤال المفاجئ، ونظرت إلى أمها الطيبة القلب، فوجدتها تتكلم جادة في هذا الأمر الخطير، ولم يخف عليها ما ارتسم على وجهها وفي نظراتها من البشر والابتهاج، فلم تشأ أن تصدم عواطفها وقال لها في حشمة وأدب:

– هذا شرف لم أحلم به بعد يا والدتي العزيزة.

وحينئذ جلست السيدة كابلليتي بجانب ابنتها، وأخذت تربت شعرها وكتفيها بيدها قائلة:

– إن فتيات كثيرات أقل منك سناً قد تزوجن وأنجبن بضعة أولاد، ومن الخير لك إذن أن تفكري في هذا الأمر.

ثم ضحكت متلطفة وواصلت كلامها فقالت:

– على أني أنصح لك منذ الآن بأن تكتفي بإنجاب ولدين اثنين فقط.

ولم يفلح تلطف السيدة كابلليتي وتفكهها في إزالة الكآبة المرتسمة على جبين جولييت، واكتفت الفتاة الحزينة المؤدبة بأن قالت:

– لا بأس من التفكير في هذا الأمر يا أماه، على إني أرجو أن تتركي لي فسحة كافية من الوقت للتفكير، وألا تخاطبيني في شأنه إلا بعد أن أنتهي من ذلك وأصرح لك بأني سئمت حياة العزوبة.

وكانت تتكلم بصوت مرتجف ينم عن الإعياء الشديد، وقد وضعت يدها على قلبها الذي أثيرت كوامن لواعجه فاشتد خفقانه، فلم تشأ والدتها أن تثقل عليها بالإلحاح في ذلك الأمر، وتركتها لتستريح في فراشها قليلاً وهي تقول لها:

– لا تجزعي يا عزيزتي لمثل هذا المرض البسيط، فعما قريب يتم شفاؤك وتستردين عافيتك كاملة غير منقوصة، وإني أبشرك منذ الآن بأن زواجك سيكون سعيداً موفقاً كل السعادة والتوفيق.

وما كادت تغادر الغرفة حتى ارتمت جولييت فوق سريرها، ثم وضعت وجهها بين كفيها وأخذت تجهش بالبكاء.

وكان روميو قد أرسل إليها من البندقية ثلاثة رسل: أحدهم قسيس، والثاني تاجر، والثالث حامل سلاح، وقد اتصلوا بها خفية بوساطة أوزيبيا مرضعها وأبلغوها تحياته وتمنياته لها بالصحة والهناءة، ولكن أحداً منهم لم ينبئها بموعد رجوعه إلى فيرونا، لأنه لم يكن قد حدد هذا الموعد بعد، وأشد ما كانت تخشاه أن يكون أبوها قد دبر أمر زواجها بأحد من نبلاء حزبه دون أن تعلم بذلك، وهنا تضطر إلى مواجهة إجراءات الخطبة وما إليها قبل أن يعود روميو من البندقية ويبحث معها أمر هذه المشكلة الجديدة.

كان السيد "بياترو رونزولوني" الذي خطب جولييت إلى أبيها، في العقد

الرابع من عمره، له ذقن مربعة بارزة تسودها لحية كثيفة، وقد فقد إحدى عينيه في مبارزة قديمة، لكنه يفخر بأنه يرى بعينه الواحدة الباقية خيراً مما لو كان بمائة عين، وكانت على خديه ثلاثة ثآليل دائمة، وبدأ الصدع يكتسح شعر رأسه برغم معالجته بالعسل مرات في اليوم ببول الخنازير طبقاً لمشورة الأطباء والمجربين، ولهذا كان يضع على رأسه دائماً غطاء كبيراً من الفرو، ويحرص على أن يبدو دائماً في ثياب ثمينة، ويعطر جسمه بنوع نادر من المسك يحتفظ معه بشيء منه أينما حل أو رحل.

و كان معروفاً بجانب سعة أملاكه وحسن إدارته لها بأنه ذو طباع ونزوات غريبة، ولوع برحلات الصيد واقتناص الوحوش، واقتناء العبيد والكلاب.

ولم تمض أيام حتى خلت السيدة كابلليتي إلى ابنتها جولييت مرة أخرى وقالت لها:

– لقد تحدثت مع أبيك في شأن زواجك، واستقر رأينا على أنه خير وسيلة إلى شفائك مما أنت فيه.

ولم تستطع جولييت أن تخفي امتعاضها و اضطرابها على أن والدتها لم تدع لها فرصة لالتماس التأجيل، وواصلت كلامها في لهجة حازمة حاسمة برغم محاولتها تكلف اللين والملاطفة، فقالت لها:

– إن مصلحتك يا ابنتي هي كل غايتنا، وقد تقدم لخطبتك نبيل عظيم الثراء، عرف بالشجاعة والإقدام، ودعانا جميعاً إلى حفلة كبيرة يقيمها بقصره الريفي الجميل الذي سيكون قصرك في المستقبل، وأنا واثقة بأنك حين ترينه هنا في هذه الحفلة ستعلنين قبولك خطبته فرحة فخورة، فليس ثمة أي شك

في أنك ستتعجبين مثلنا بشمائله ومزاياه، وتلمسين أنه نعم الزوج الذي تجدين مع السعادة الدائمة والنعيم المقيم.

وشعرت جولييت بأنها تكاد تختنق، وبأن صدرها ينز ويغلي لشدة ما يحتمل فيه من الألم والغيظ واليأس، فأطرقت ساكتة ريثما خفت حدة اضطرابها، ثم نظرت إلى والدتها متسائلة متعجبة وقالت لها:

– لماذا تتعجلون زواجي هكذا؟!.. هل ترون إني جاوزت من الشباب وتخشون ألا أجد زوجاً مناسباً في الوقت المناسب؟

فقالت لها أمها: "ليست المسألة بهذه الصورة التي تتخيلينها، ولكنك تعلمين أنك واحدتنا، وإن أكبر أمانينا أن نقر أعيننا برؤيتك زوجة سعيدة وأماً تنجب لنا أحفاداً تنشرح بهم صدورنا، هذا إلى أن النبيل الذي أعرب عن رغبته في الزواج بك اجتمعت في شخصه مزايا قلما تجتمع لإنسان!؟

فقالت جولييت: "إني لأشكر لك ولأبي شده اهتمامكما بأمر مستقبلي وسعادتي، ولكن أليس من الجائز أن يكون ذلك النبيل الثري الذي وقع عليه اختياركما لا يوافق باطنه ظاهره.

فحدجتها أمها بنظرة عتاب وقالت لها:

– كلا.. أن أباك يعرفه حق المعرفة، وقد صرح لي بأنه إلى ثرائه الواسع وشجاعته الفائقة خليق بأن تفخر الأسرة بمصاهرته، وهل تظنين أننا كنا نوافق على خطبته لك إلا بعد التحقق من أنه كفؤ لها.

وهنا أدركت جولييت أن ليس هناك فائدة من الجدال، فسكتت على

مضض وقلبها يذوب أسى ويأساً، وظنت أمها أن سكوتها دليل على قبولها ورضاها فنهضت وقبلتها مسرورة، ثم تركتها موصية إياها بأن تستعد لحضور حفلة خطيبها العظيم، ونبأتها باسمه فنم تزدها به إلا جهلاً ومقتاً وتحقيراً.

وذهبت جولييت إلى قصر السبد بياترو رونزولوني في ضواحي فيرونا، في موكب كبير ضم والديها وجميع أفراد أسرة كابلليتي وبعض المقربين من الأعوان والأنصار، كانت لفرط ذهولها وحيرتها وكآبتها لا تكاد تقوى على حفظ توازنها فوق الجواد الذي ركبته، كما أنها كانت تجاهد بكل ما بقي لها من قوة حتى لا تغلبها عواطفها وتنفجر باكية أمام الحاضرين والحاضرات.

وكان القصر جميلاً، شيد على ربوة عالية، وهو كله مبني بالقرميد الأحمر، وتحيط به حدائق وبساتين أبدع تنسيقها وحفلت بكل أنواع الفاكهة وأشجار الزينة والورود والزهور، وقد غرست في صفوف بعضها فوق بعض، وتخللتها أحواض ونوافير من المرمر المزخرف المحلي بالتماثيل.

وخف صاحب القصر وكبار آله وأعوانه لاستقبال موكب آل كابلليتي مبالغين في الترحيب بهم، وطافوا بهم في الطريق إلى قاعة المأدبة بحدائق الزهور النادرة داخل القصر، وحظائر الخيل والكلاب، وأقفاص الأسود والفهود والدببة والذئاب والثعالب والقرود والظباء والأيائل وغيرها من الوحوش والحيوانات التي اقتنصها صاحب القصر في رحلاته أو استوردها لحسابه من مختلف الأنحاء.

وكانت بعض هذه الأقفاص تحوي رجالاً ونساء من الزنوج وغيرهم من سكان الغابات والأحراش ومجاهل الهند والصين، فوقف السيد كابلليتي ومن

معه طويلاً أمام هذه الأقفاص يتفرجون على من فيها ويتبادلون عبارات العجب والإعجاب.

وقالت جولييت لنفسها بعد إذ رأت خطيبها المنتظر صاحب القصر، ثم هؤلاء الأرقاء المساكين الجالسين القرفصاء في تلك الأقفاص.

– لو أن هناك إنصافاً في هذه الدنيا لوضع ذلك النيل الأعور الثقيل الظل في قفص من هذه الأقفاص.

واستمر المدعوون بعد ذلك أكثر من ساعتين جالسين إلى الموائد التي حفلت بألوان عديدة شهية من الطعام، ومنها من أجود أنواع الشراب، وقد توفر على خدمتهم عشرات من الخدم والحشم، وجلب لتسليتهم والترفيه عنهم عدد كبير من الحواة والمهرجين والبهلوانات والشعراء والمحدثين والموسيقيين.

وحرص صاحب القصر على أن يختص السيد كابلليتي وزوجته وابنته بمزيد من تحياته، فكانت عباراته تصل إلى سمع جولييت وكأنها فحيح الأفاعي، وحرصت من جانبها على أن تتحاشى نظراته إليها إذ شعرت منذ تلاقت نظراتهما لأول مرة بأن وجهه ليس فيه ما يغريها بغير صفعة، وعجبت من أمر أبويها كيف حسين في عينيهما مثل هذا المخلوق الغريب الهيئة والطباع؟!

ولما انتهت المأدبة، انتقل الحاضرون والحاضرات إلى قاعة الاستقبال الفسيحة فاحتشدوا فيها، وتوسطهم السيد كابلليتي وزوجته وابنته، وأمامهم السيد بياترو رونزولوني صاحب القصر، وكاهنه الخاص.

وفي حركة رتيبة وقور التفت السيد كابلليتي إلى جولييت وأشار بيده إلى

النبيل صاحب القصر وقال لها في صوت أراد أن يكون وقوراً أيضاً:

– هذا هو الزوج الذي اخترناه لك.. ولا شك في أنك ستحرصين دائماً على أن تكوني موضع حبة واحترامه، وبذلك تعيشان سعيدين باستمرار.

وطفح وجه السيد رونزولوني بالمسرة والزهو، بينما وقفت جولييت شامخة الرأس معقدة الجبين وقالت لأبيها:

– إني ليسرني أن أكون خاضعة لإرادة أبي العزيز في كل شيء، كما إني أقدر نصائحه الغالية الحكيمة كل التقدير، ولكني لم أفرغ من التفكير في هذه المسألة، وليس من الممكن أن أبت فيها برأي صحيح بمثل هذه السرعة.

وبغت السيد كابلليتي وزوجته، وجحظت عيون المدعوين والمدعوات وفغروا أفواههم دهشة، في حين تصبب العرق بارداً من وجه السيد رونزولوني ثم انتفخت أوداجه فجأة وقال متظاهراً بعدم الاكتراث:

– حسناً يا سادة!.. يمكن أن تستوضحوها رأيها فيما بعد:

وفي أثناء عودة آل كابلليتي إلى قصرهم فاجأت جولييت أباها مرة أخرى إذ قالت له في صراحه:

– أي زوج هذا الذي اخترتموه لي؟ إنني أؤثر الموت على أن أتزوجه!

وجذب السيد كابلليتي عنان جواده غاضباً وحدج ابنته بنظرة قاسية ملتهبة، وصاح بها قائلاً وفي لهجته أثر إفراطه في الشراب.

– ماذا تقولين أيتها المتمردة؟!.. إلى هذا الحد تخالفين إرادتي؟!.. كلا!.. إنني لا يمكن أن أسمح لك بهذا، ولا مناص لك من الإذعان والخضوع.

واستمرت تشهق بالبكاء بينما أبوها يرعى ويزيد ويتهدد ويتوعد، حتى وصلوا إلى القصر، وهمت جولييت بالصعود إلى غرفتها، ولكن أمها استوقفتها أمام أبيها وقالت لها:

– لا ينبغي لك أن تغضبي أباك يا جولييت، تعالي يا بنيتي العزيزة وكوني عند حسن ظننا بك وصرحي لأبيك بأنك لا تخالفين إرادته وأنك قد قبلت الزواج بتلك السيد العظيم.

وقالت لها جولييت وهي ما زالت ترتعد:

– إن أبي يعلم يقيناً أني أحبه وأجله وأطيعه، ولكني لا أستطيع أن أتزوج بأي أحد إلا بعد أن أشعر بأنني أحبه بكل قلبي، فإذا كنتم مطمئنين إلى أن ذلك السيد جدير بالحب، فاتركوا لنا فسحة من الوقت ليزداد كل منا معرفة بالآخر، ثم ليكن الزواج بعد ذلك.

وعاد السيد كابلليتي يصرخ في وجه جولييت قائلاً:

– كلا!. كلا! محال أن أقبل منك أي محاولة للمطل والتسويف. إن السيد رونزو لوني زوج يشرف أسرتنا، أنه من أنصار البابا، ولم يتخل في أي يوم عن مناصرة حزبنا بجهده وماله.

وعادت جولييت إلى البكاء والتوسل، ولأن لها قلب أمها فهمت بإقناع أبيها بتأجيل البت في هذا الأمر حتى الصباح، غير أن الخمر كانت قد لعبت برأسه وبلغت ثورته منتهاها فوقف يزمجر ويدمدم، ثم التفت إلى بعض الحراس الواقفين وصاح بهم قائلاً وهو يشمر عن ذراعيه:

– هاتوا هذه البنت الوقحة المتمردة.. هاتوها!.. إني أشعر بأن يدي تريد أن تضرب!.. إن الله لم يكن راضياً عنا إذ قدر علينا أن تكون هذه المجرمة كل ذريتنا.. هاتوها.. هاتوها.. أن أسرة كابلليتي العظيمة لن ترضي أبداً بأن تكون سمعتها وكرامتها مضغة في الأفواه.

ثم خطا متجهاً إلى حيث كانت جولييت واقفة تبكي وتنتحب، ورفع يده ليهوى بها على وجهها، ولكن أمها أمسكت ذراعه بكل قوتها، ثم

اجتذبته إلى اقصى القاعة وأجلسته على مقعد هناك حيث أخذت تهدئ من أعصابه الثائرة قائلة:

– هون عليك يا عزيزي، ليس هناك قط ما يدعو إلى مثل هذا.. وأنا واثقة من أنها لن تلبث قليلاً حتى تتوب إلى رشدها وتعلن راضية مغتبطة قبول ما أردته لها، فهيا.. امض إلى غرفتك لتستريح ولا تعكر دمك، فلن يكون إلا ما تريد.

وما زالت به حتى أنهضته ودفعت به إلى خارج القاعة، حيث مضى إلى غرفته وهو يسب ويلعن، ثم عادت إلى جولييت فأخذت تهدئ ثائرتها وتجفف دموعها ولم تتركها حتى ذهب عنها الروع وصعدت إلى غرفتها وبدلت ثيابها، ثم تمددت في فراشها تلتمس الراحة والهدوء.

الحبيب يعود

لزمت جولييت غرفتها في اليوم التالي محتجة كعادتها بأنها في حاجة إلى الراحة والاستجمام، وفيما كانت أمها تفكر في وسيلة نقنعها بها وتحملها على قبول الزواج بالسيد رونزولوني، جاءتها أوزيبيا مرضع جولييت وقالت لها:

– بالباب يا سيدتي بائع جوال من البندقية معه سلع طريفة مختلفة يرغب في عرضها.

وصممت السيدة كابلليتي بأن تأمر أوزيبيا بصرف ذلك البائع، ثم لاح لها أن جولييت قد تجد تسلية في مشاهدة ما معه من السلع، فأذنت في إدخاله إلى ساحة القصر، ثم سارعت إلى غرفة جولييت، واستطاعت أن تقنعها بالنزول معها للتفرج على السلع التي جاء بها ذلك البائع من البندقية.

والواقع أن اسم البندقية حيث يوجد روميو كان هو سر إقناع جولييت بمغادرة غرفتها، وهناك في ساحة القصر التي تلي سوره الخارجي جلست هي وأمها على مقعدين من الحجر منحوتين في السور نفسه، وخد البائع البندقي – بعد أن حياهما في إجلال – يخرج من صناديقه ما اشتملت عليه من السلع الثمينة النادرة، وكان ذا لحية كثيفة وقد لف رأسه وجبينه بقطعة من القماش، فلم يعد يبدو من وجهة الأسمر الذي لوحه

وهج الشمس وهواء البحر إلا عيناه الواسعتان الصافيتان، وقد هاجت كوامن أشجان جولييت حين رأتهما، إذ كانا شبيهتين بعيني روميو، ولهذا حرصت على ألا تعاود النظر إليهما، وشغلت نفسها بمشاهدة السلع التي شرع البائع بعرضها ويثرثر على عادة أمثاله من الباعة مدللاً على جودتها وطرافتها بما عانى في سبيل جلبها من الأخطار العديدة في بحار الشمال المليئة بالقرصان، وفي الصحاري المحرقة والغابات ذات الوحوش والحيات، علاوة على عصابات غير المؤمنين.

ثم اقترب البائع من جولييت خلال اشتغال والدتها بفحص بعض السلع، وهم إليها قائلاً:

– جولييت.. لا تنزعجي.. إنني أنا روميو!

ثم ابتسم وهو ينظر إلى عينيها والدهشة مرتسمة فيهما، وأومأ إليها محذراً، وتراجع عقب ذلك إلى حيث كانت والدتها تقلب سلعة في يدها واستأنف حديثه عن جودة السلع ونفاستها، قائلاً:

- معي أيضاً أحجار كريمة ولآلئ مستخرجة من البحر الأسود ومعي أسلحة ونجف وأدوات للزينة لا تقدر بمال.

ثم فتح آخر حقيبة معه وأخرج منها عقوداً وأقراطاً وحلياً مختلفة الأحجام والألوان، وأعطى السيدة كابلليتي بعضها فأخذت تتأملها في عجب وإعجاب، بينما اقترب مرة أخرى من جولييت وناولها حلية عجيبة قائلاً لها:

– ألم تعرفيني بعد؟. لا تضطربي هكذا وتجمدي.. ها قد تلاقينا أخيراً وسنتلاقى.. فلا تخشي أي شيء. واستطاعت الفتاة أن تتغلب على دهشة المفاجأة، وسرت في جسمها قوة خفية أنعشتها وردت عليها آمالها الذاهبة، فجلست أمام والدتها متظاهرة بفحص السلع معها، وأخذت تختلس النظر إليه وتبادله الابتسامات من حيث لا تشعر والدتها، ثم قالت لها أخيراً:

- لا شك أنها سلع جميلة طريفة يا والدتي العزيزة، وحبذا لو كان عنده أقمشة وجواهر أخرى تصلح للعرس. فنظرت إليها والدتها، وقد سرها ما بدا من مرحها وانبساط أسرة وجهها، وتحدثها عن العرس دون مضاضة، وقالت لها:

– نعم، حبذا ذلك يا بنية لأن ملابسك وحلاك يجب أن تكون كلها غاية في النفاسة، لتليق بسليلة آل كابلليتي وزوجها النبيل الثري العظيم.

ثم التفتت إلى روميو المتنكر في زي البائع البندقي وقالت له:

– حسناً.. أن حظك سعيد ولا شك، وما دامت بضاعتك كلها بهذه الجودة فسنشتري كثيراً منها، وندفع الثمن الذي ترتضيه.

الفصل السابع

عهود الحبيبين

رحلة في ضوء البرق

استيقظت جولييت في منتصف الليلة التالية وهي تشعر بأنها استردت صحتها ونشاطها بعد أن عاد روميو، وصار من الممكن أن يفكرا معاً في وسيلة تخرجها من ذلك المأزق الذي وقعت فيه.

وفيما هي تفكر في هذا الأمر، سمعت نقرة خفيفة على زجاج النافذة المؤدية إلى الشرفة، فحسبت أول الأمر أن فراشة كبيرة اصطدمت بالزجاج وهي تحارب الوصول إلى ضوء المصباح، ولكنها تحققت بعد هنيهة أن هناك حصوات يقذف بها زجاج النافذة، فخفت إليها وفتحتها وأطلت منها فلم تتبين عيناها شيئاً في الظلام الذي كان سائداً حينذاك، وكادت تغلق النافذة لتعود إلى فراشها لولا أن وصل إلى سمعها في هذه اللحظة صوت يهمس باسمها عند أدنى السور، وما لبثت قليلاً حتى تحققت أنه صوت روميو، وكان يقول لها:

– جولييت.. ارتدي ثوباً للخروج، سنذهب إلى شاطئ النهر لنتحدث هناك.. أسامعة أنت؟.. هاك سلماً من الحرير جئت به لتهبطي بواسطته.. هيا.. لا ترددي يا عزيزتي.

وشعرت الفتاة بشيء ناعم استقر على ذراعيها المستندين إلى حاجز الشرفة، فأجفلت ثم سمعت روميو يواصل همسه لها قائلاً:

– هل وصل طرف السلم إليك.. ثبتيه في الحاجز، وسأتلقاك هنا بين ذراعي.

وبعد قليل كانت جولييت قد ارتدت ثوباً ثقيلاً قاتماً، وأخذت تهبط من الشرفة على درجات السلم الحريري وقلبها يخفق بشدة لفرط تأثرها، ولم تمض دقائق حتى كانت بين ذراعي روميو الذي تلقاها وحملها على صدره في رفق وحنان وهي مسندة رأسها إلى كتفه، ثم انطلقا إلى النهر القائم وراء الحقل المحيط بالقصر، وقد ساد الظلام والسكون، فلم يكن يسمع إلا وقع خطاهما على الأعشاب، وتهامسهما الذي اختلط بهمساته النسيم.

وقالت له ويدها في يده:

– ما بال السماء قد خلت من النجوم؟.. إني خائفة من هذا الظلام.

فأجابها وهو يداعب بيده خدها وشعرها.

إن النجوم باقية هناك، ونورها لا ينطفئ أبداً.. ولكن السحب تحجبها الآن وستزول هذه السحب السوداء فتعود النجوم إلى الظهور.

وعثرت في طريقها عثرة خفيفة، فسارع روميو إلى تطويقها بساعديه ليقيل عثرتها، وواصل كلامه فقال:

– لا تخافي شيئاً.. أن الكون كله يبدو كأنما حنق لنا وحدنا.. فقد هجع الناس والطير والحيوانات، وسكن كل شيء إلا قلبانا.

وبدأت قطرات من المطر تتساقط على وجهيهما المتلاصقين، فقال روميو:

– ها قد بدأت السحب تفرغ حمولتها.. اطمئني يا حبيبتي.. أن هناك فوق هذه السماء الزرقاء التي تدور حولنا سماء بللورية ناصعة تعيش فيها الملائكة والأرواح السعيدة بمنأى عن الغيوم والصواعق والأمطار.. ومن فوق هذه السماء سماء أعلى وأعز وأكرم لأنها سماء الله.

وكان المطر قد ازداد، واشتد الهواء، ورعدت السماء وبرقت، فشعر روميو بارتجاف جولييت وقلقها، فخلع معطفه وأدخلها معه فيه، فازدادا التصاقاً، ثم لاحت لهما في ضوء البرق شجرة كبيرة قريبة فاتجها إليها صامتين، وهناك وقفا مستندين إلى جذعها وجسماهما متلاصقان داخل المعطف السميك وقد طوق خصرها بذراعيه وطوقت عنقه بذراعيها، وبقيا هكذا صامتين وقلباهما يتكلمان، وقد ذهلا عن الرعد والبرق والمطر والبرد، ولم يفيقا من ذهولهما إلا وقد سكنت العاصفة وانقطع المطر وانقشعت السحب ولاحت أضواء الفجر.

وهنا غادرا مخبأهما الأمين السعيد، و أخذا يحثان الخطى عائدين إلى القصر، وهو يعاونها على اجتياز العقبات التي خلفتها الأمطار في الطريق، ثم آثر أن يحملها على صدره ليسارع إلى العودة بها قبل انتشار ضوء الصباح، فاستسلمت له مطمئنة مغتبطة، وانطلق هو بحمله في خفة ونشاط حتى بلغ سور القصر تحت شرفتها، فأعانها على الصعود إليها بوساطة سلمه الحريري بعد أن صعد هو قبلها ليتلقاها، ثم وقف في الشرفة بعد فك طرف السلم

المثبت بالحاجز وتمنطق به تحت معطفه، إلى أن دخلت غرفتها وأغلقت زجاج نافذتها مبتسمة له، وقبل أن يفترقا، اقترب كل منهما بوجهه من زجاج النافذة وألصق به شفتيه حيث تبادلا قبلة طويلة حادة من وراء الزجاج.

وكانت هي المرة الأولى التي التقت فيها شفتا روميو وجولييت.

وبقيت جولييت في غرفتها حتى الضحى، وهي ما زالت ثملة بنشوة السعادة التي غمرتها خلال نزهتها الليلية في ضوء البرق مع روميو الحبيب.

وكانت تحدث نفسها قائلة:

– ترى هل يعود في الليلة القادمة؟

واستمرت مستغرقة في مثل هذا الخيال، حتى فتح باب الغرفة ودخلت أوزيبيا مرضعها الحنون وقالت لها ووجهها يفيض بالبشر والابتهاج:

– سيدتي.. لقد عاد تاجر الأمس ومعه السلع الجديدة التي وعد بإحضارها، وقد أمرت سيدتي والدتك بأن أجيء به إليك هنا لكي تنتقي من سلعه ما شئت استعداداً لزواجك السعيد!

وما كادت جولييت تصدق سمعها، ولكن أوزيبيا كانت تتكلم بادية الجد، وأردفت قائلة:

– إنه الآن واقف بالباب في انتظار الإذن له في التشرف بالمثول بين يديك!

ولم تنبس جولييت بكلمة، واكتفت بأن أومأت موافقة على إدخال البائع، وقد لاح لها أن روميو أرسل شخصاً آخر بدلاً منه، وبقيت عيناها

معلقتين بالباب حتى دخل البائع القادم، فإذا هو روميو نفسه، وعلى وجهه ابتسامة حلوة لطيفة كتلك التي ارتسمت على شفتيه حين تبادلا قبلة الوداع منذ ساعات من وراء الزجاج.

وقال لها في صوت عذب حنون:

– هل أدهشك أني اشتقت إليك فجئت أطفئ نار شوقي بنظرة إليك؟

وعاودتها الدهشة لجرأته وصراحته فابتسم وقال لها:

– اطمني يا عزيزتي، إننا وحدنا هنا، وقد انصرفت أوزيبيا الطيبة القلب لتشرف على أعمال الخدم المشغولين بغسيل الملابس وتنظيم الأثاث استعداداً لزواجك السعيد من السيد روزولوني!

فوضعت يدها على قلبها، وزفرت زفرة حارة، وقالت له: – أتعرفه يا روميو؟

فابتسم مرة أخرى وقال:

– كيف لا أعرفه؟.. وهل يخفى العمر يا جولييت؟!.. أن أهل فيرونا لا حديث لهم إلا عن حياة البذخ واللهو التي يحياها في قصره الريفي البديع، وحيواناته ووحوشه وعبيده من مختلف الأجناس والألوان.

ثم ضحك ساخراً واقترب من جولييت فوضع يده على كتفها وقال وهو يتأمل عينيها الصافيتين:

– ما أروع هاتين العينين!... ولكن أين هما على روعتهما من تلك العين الواحدة التي يؤكد السيد رونزولوني أنه يرى بها كما لو كانت مائة عين؟!

وهنا همست جولييت قائلة له:

– روميو.. حبيبي روميو.. إنني لك أنت وحدك، كما أنك لي وحدي، ولن يستطيع أحد أن يفرق بين قلبينا اللذين وحدهما حبنا المتبادل المكين.. بالله لا تجر على لسانك ذكر ذلك المخلوق الفظ الغليظ القلب، ودعنا الآن نستمتع بهذا اللقاء الجميل السعيد.

فتناول روميو يدها بين يديه ووضعها على قلبه وقال لها:

– ثقي يا عزيزتي بأن ذلك الأحمق البغيض لن ينال منك شعرة واحدة ما دمت على قيد الحياة، ولكن كانت إحدى عينيه قد ذهبت في مبارزة قديمة كما يقال، فإن حياته كلها من السهل جداً أن تذهب بها مبارزة أخرى!

ففزعت جولييت وقالت له:

– مبارزة؟.. أليست هناك وسيلة أخرى أسلم عاقبة؟ فضغط روميو يدها بقوة من حيث لا يشعر وقال:

– ماذا تخافين.. أن كل ما يدعيه من البراعة في المبارزة في يلبث دقيقة حتى يتبخر في ضوء الحقيقة الواقعة، حينما يتلاقى سيفانا!

وارتعدت الفتاة في قبضته، وبدا التوسل في نظراتها وقالت:

– كلا يا روميو.. إنك أعقل وأكيس من أن تقدم على ذلك.. يجب أن يبقى حبنا سراً فيما بيننا حتى تحين الفرصة المناسبة لإعلانه.. هل نسيت ما قلته أمس عن تلك السحب السوداء التي حجبت نجوم السماء؟ ألم تنقشع

السحب ويعود النور مبدداً ما ساد الكون من ظلام؟.. أن هذه المحنة التي نعانيها بسبب ما بين أسرتينا من عداء لن تبقى طويلاً، أن قلبي ليحدثني صادقاً بأنها توشك أن تزول، وحينئذ يتم اتحادنا في العلن كما تم في الخفاء.

فتنهد روميو، وسكت هنيهة وقد بدا في وجهه القلق والحيرة، ثم انبسطت أسارير وجهه فجأة وقال مبتسماً:

- حسناً يا جولييت.. لن ألجأ إلى القوة لإقصاء رونزولوني الأعور من طريقنا، ما دامت هذه إرادتك!. إنك لحكيمة عاقلة مثلما إنك جميلة ظريفة، وقد يدرك باللين والحيلة ما ليس يدرك بالقوة والإقدام!

عجب مركوتشيو إذ جاء روميو إليه ذات مساء ليدعوه إلى تمضية السهرة معاً، وكان عجبه أشد حين أردف روميو فقال:

– ليس لدي أي فكرة عن سهرة معينة، إنما يهمني أن نجلس معاً بعض الوقت لنتحدث ونتشاور!

ثم انفجر مركوتشيو ضاحكاً، وقال له وهو يربت كتفيه:

– أي حدث لديك أيها الفتى العاشق المستلهم؟

فقال روميو جاداً:

– يجب أن نجد في أقرب وقت ممكن وسيلة تكفل أن تمحي فكرة الزواج بجولييت من ذهن ذلك النبيل الأعور الثقيل؟

فقال له مركوتشيو:

– لا شيء غير الموت يستطيع أن يجعله يسلو أحلامه بها!... فهز

روميو كتفية ساخراً وقال: – نريد وسيلة أخرى غير الموت.. هذه إرادة جولييت نفسها!

فقال له مركوتشيو متعجباً:

– جولييت هي التي لا تريد له الموت؟!.. إذن ينبغي أن نبحث عن وسيلة تمحو فكرة الزواج من ذهنها هي أيضاً!

فعقص روميو حاجبيه وحدج مركوتشيو بنظرة قاسية وقال له:

– كلا يا مركوتشيو.. كلا!.. أن جولييت فتاة نبيلة القلب صادقة الحب وفية بالعهد، ولكنها كذلك ذات حكمة وعقل ولا تريد أن تثار الأقاويل حول اسمها واسم أسرتها.

فأومأ مركوتشيو برأسه مستحسناً، ثم أطرق بعض الوقت مفكراً، ورفع رأسه أخيراً وقال لروميو:

– هون عليك أيها العزيز، إن صديقك مركوتشيو عنده الحل الحاسم لهذه المشكلة، كعهدك به في مشكلات سابقة.

وشاع السرور في وجه روميو، وربت كتف صديقه وسأله في لهفة:

– ماذا لديك من حل لهذه المشكلة؟

فضحك مركوتشيو وقال له وهو يلاطفه:

– لن أخبرك به إلا غداً، بعد أن أفرغ من دراسته!

فسكت روميو قليلاً، ثم هز رأسه مستسلماً وقال:

– لا بأس بذلك، إلى الملتقى مساء غد أيها العزيز.

وغادر منزل صديقه صامتاً، ومضى إلى قصر أبيه حيث أمضى

ساعات في غرفته بين نائم ويقظان. وبعد ساعة من انتصاف الليل غادر القصر، مولياً وجهه شطر قصر آل كابلليتي، متمنطقاً تحت معطفه بسلمه الحريري الذي صار من أحب الأشياء لديه منذ وطئت درجاته حبيبة القلب جولييت.

وفي الليلة التالية، ذهب روميو بسلمه أيضاً إلى قصر آل كابلليتي، وما كاد يستقر به مجلسه بجانب جولييت في شرفة غرفتها حتى ابتدرها قائلاً:

– لقد تخلصنا منه.. من رونزولوني!

فأخذتها البغتة وبقيت تحملق فيه صامتة بعض الوقت، فابتسم وقال:

- لقد وعدتك بألا نستعمل العنف في التخلص منه، وما زلت عند وعدي!

فسألته متعجبة: "إذن.. ماذا حدث؟"

قال: وستعرفين كل شيء عما قليل".

ولم تمض أيام حتى كان السيد رونزولوني قد طرح وراءه ظهرياً أمر خطبة جولييت، ولم يستطع أبوها أن يجتمع به بعد ذلك ليخاطبه في هذا الأمر، بل إن السيد كابلليتي وزوجته صارا يبغضانه ويزدريانه بقدر ما كانا يميلان إليه ويفخران بمصاهرته، وبعد أن كانا يحاولان إرغام جولييت على قبول الزواج به، انعكست الآية فصارت هي تلح في سؤالهما متى يتم هذا الزواج متظاهرة

برغبتها في التعجيل بإتمامه، في حين يلتمسان هما شتى المعاذير للمماطلة والتسويف، ويقرعان سن الندم على أن اغترا يظهر ذلك الريفي الخبيث، شاكرين لله أن كشف لهما دناءته وحقارة نفسه واستهتاره بقواعد الشرف والكرامة، قبل أن يتم ذلك الزواج.

أما سر هذا التبدل والانقلاب فكان ما عرفه الخاص والعام في فيرونا وضواحيها من توطد العلاقات الغرامية بين السيد رونزولوني والغانية روزلندا، حتى صارا لا يكادان يفترقان ليل نهار.

ولم تكن بينهما معرفة سابقة، ولكن مركوتشيو الداهية كان هو الذي سعى في ذلك خفية، إذ كلف صديقاً له كتابة خطابين؛ أحدهما باسم روزالندا إلى رونزولوني تعترف فيه بأنها اعجبت به كل الإعجاب لما سمعت من لطفه وظرفه ومزاياه العديدة، وتعرب عن شدة رغبتها في الاجتماع به في أي مكان، والخطاب الآخر باسم رونزولوني إلى روزالندا يبلغها فيه إعجابه بجمالها الساحر الجذاب ومجالسها الطريفة الممتعة، ويبثها وجده وشوقه إلى تلاقيها في أي مكان.

ولم ينس مركوتشيو أن يرفق الخطاب الأول بزهرة جميلة عاطرة، وأن يطوي الخطاب الآخر على جوهرة لطيفة نادرة.

خطيب جديد

خلا السيد كابلليتي إلى زوجته في قصرهما يوماً للمباحثة في أمر جولييت وزواجها، فقالت له:

– لقد جنينا على ابنتنا العزيزة بذلك الاختيار غير الموفق، ولا شك أن

المرض الذي عاودها أخيراً يرجع إلى خيبة آمالنا جميعاً في ذلك النبيل الخبيث النفس، وعلينا أن نبحث لها عن زوج آخر وإلا ساءت العاقبة.

فقال لها: "الحق معك، ولاسيما أن جولييت الآن قد بلغت السابعة عشرة، وفي هذه السن ينحصر تفكير الفتيات عادة في أمر الزواج".

– ثم سكت قليلاً وهو يعبث بلحيته مفكراً، واستأنف كلامه فقال:

– سمعت أن الكونت لودرون الشباب تبحث له أسرته من زوجة لائقة ليعيش وإياها عيشة فاضلة هادئة هانئة، بدلاً من انغماسه في حياة اللهو والملذات مع لداته وأقرانه من الشبان، فما رأيك في اختياره زوجاً لجولييت؟

فقالت السيدة كابلليتي:

– قبل أن نخطو أي خطوة في هذا السبيل، يحب أن نبحث بدقة وعناية حتى نتحقق أن هذا الكونت لن يخيب هو الآخر آمالنا فيه.

فقال لها: "لا شك في أنه شاب جميل ثري ظريف مهذب، وصحيح أن أسرته ليست من حزب البابويين ولكنها تميل إلينا ولم يحدث أن اصطدمت بأسرتنا في خصومة قط!".

فقالت: "إذن.. لا بأس من اختياره زوجاً لابنتنا، وأرجو أن يكون التوفيق رائدنا في هذه المرة!".

وفوجئت جولييت بوالدها تخلو إليها على أثر ذلك لنسألها:

– ما رأيك يا جولييت.. أليس من المستحسن أن تفكري من جديد في أمر الزواج؟.. أن الزوج الذي اخترناه لك في هذه المرة يختلف كل الاختلاف

عن ذلك النبيل الريفي الدنيء الذميم، فهو بجانب ثرائه ونبل أسرته شاب وسيم مهذب و...

فقطعت جولييت كلام والدتها وقالت لها في امتعاض شديد: – – لقد قررت ألا أتزوج!

وعبثاً حاولت والدتها أن تزحزحها عن رأيها هذا قيد شعرة، ولما علم بذلك أبوها غضب غضباً شديداً ودعاها إليه حيث قال لها محتداً:

– ما هذا يا جولييت.. ألم توافقي على الزواج منذ حين؟.. لماذا إذاً ترفضينه الآن؟

فقالت له في لهجة مؤدبة وصوت خفيض:

- إن الحديث عن الزواج يملأ في حسرة ومرضاً، وخير لي من الزواج الآن أن أقذف بنفسي من أعلى برج القصر، أو أن أهيم على وجهي في الغابات والصحاري المليئة بالوحوش وقطاع الطرق، بل خير لي من ذلك أن أقذف بنفسي في جب مظلم تتكدس فيه الثعابين والحيات، أو أن أدفن حية في كفن واحد مع أشلاء قتيل.

ثم انفجرت على أثر ذلك باكية، فأخذت أمها الرأفة بها وقالت لزوجها:

– فلنؤجل الحديث في ذلك قليلاً، إن جولييت ما زالت مريضة متأثرة مما حدث في المرة الماضية.

وتركهما السيد كابلليتي وهو يزمجر ثائراً ويتهدد جولييت قائلاً:

– يجب أن تفكري في هذا الأمر وتمشي فيه في أقرب وقت، وإلا

فاستعدى منذ الآن لدخول الدير لتعيشي هناك مع الراهبات.

وبقيت السيدة كابللتيني ثمانية أيام كاملة وهي تلح على أذني جولييت في أمر الزواج محاولة إقناعها بالقبول.

ولم تكن جولييت قد علمت شيئاً عن الخطيب الجديد الذي وقع عليه اختيار أبويها إلى أن قالت لها أمها يوماً وهي تحدثها في هذا الشأن:

– ثقي بأننا لا نريد إلا سعادتك والاطمئنان إلى مستقبلك يا بنيتي، وهذا ما جعلنا في هذه المرة ندقق في اختيار الزوج اللائق بك، وفي استطاعتك أن تدركي أي تضحية قدمها أبوك لأجلك إذا علمت بأن خطيبك الجديد ينتمي إلى أسرة ليست من حزبنا، ولكنه شاب وسيم وبطل رياضي عظيم وقد أعرب عن شدة إعجابه بك، وتقديره مزاياك، واستعداده لأن يكون بمثابة عبد مملوك لك، يختصك بحبه واحترامه حتى آخر رمق له.

وخفق قلب جولييت، وتضرجت وجنتاها الذابلتان بالحمرة، إذ تبينت من كلام أمها أن ذلك الخطيب الجديد ليس سوى روميو.

ولم تتمالك عواطفها من فرط سرورها بهذه البشرى المفاجئة، فارتمته على أمها وراحت تعانقها وتقبلها باكية قائلة:

– إنني عاجزة عن تقدير عنايتكما الكريمة بي، وما كان لي أن أعصي لكما أمراً، وأسأل الله أن يجزيكما عني خير الجزاء.

وسارعت السيدة كابلليتي إلى زوجها تزف إليه بشرى اقتناع جولييت وقبولها الزواج بالخطيب الجديد.

وكان سروره هو الآخر عظيماً، ودعا إليه جولييت حيث استقبلها هاشا باشا وابتدرها قائلاً:

– أرأيت يا بنية كيف أننا لا ندخر جهداً أو نحجم عن تضحية في سبيل سعادتك ومرضاتك؟.. إنني أعتقد اعتقاداً لا شك فيه أن أي فرد من حزبنا يعدل عشرة أو أكثر من الأحزاب الأخرى، ولكني مع ذلك قبلت أن أزوجك بشاب ليس من حزبنا، لأنه يحبك مخلصاً وجدير بأن يجعلك سعيدة معه.

فاغرورقت عيناها بالدموع، وقالت وجسمها كله ينتفض لفرط تأثرها:

– شكراً لك يا أبي، لقد كنت موقنة بأن الله لن يتخلى عني، وأن أسرتنا وأسرة مونتيكي لابد من أن تتصالحا ويحل الوئام والوفاق بينهما محل العداوة والبغضاء!

وأخذ العجب جولييت، إذ رأت وجه أبيها قد تجهم فجأة، والتمعت عيناه ببريق الغضب، وصاح بها قائلاً:

- مالنا وآل مونتيكي؟.. ما هذا الهذيان؟.. أحسبت أن خطيبك الجديد من أولئك الأوغاد الأنذال أنصار إمبراطور الشمال؟

كلا.. كلا.. ما كنت لأرضى لك ولا خادمة عندك أن تكون زوجة لواحد من أولئك الأعداء الألداء الأدنياء.. أن خطيبك المختار ينتمي إلى أسرة لودرون، لا إلى تلك الأسرة الحقيرة!

ولم تستطع الفتاة المسكينة أن تسمع بقية ثرثرة أبيها، فقد أغمى عليها

وخرت ساقطة على الأرض بين يديه، من هول تلك المفارقة القاسية، وانهيار آمالها فجأة بعد أن حسبت أنها تحققت أو كادت تتحقق بعد طول الانتظار!

وظن أبواها أن إغماءها كان نتيجة لفرط سرورها واغتباطها بهذا الزواج الجديد، وما كانت تفيق من إغمائها حتى انطلق أبوها بسرد على مسامعها مزايا الخطيب الجديد، في حين كانت في معاودة الذهن، موجعة القلب لا تعي شيئاً مما يقول، ثم صحبتها أمها حتى أوصلتها إلى غرفتها وتركتها هناك لتستريح بعد أن كررت لها التهنئة وأطيب التمنيات!

كشف سر الحبيبين

لم يكن تيبالدو ابن عم جولييت قد رآها منذ بضعة أشهر، فقد شغل عنها باندفاعه في مغامرات غرامية مثالية لم تدع لديه وقتاً لمقابلتها أو التفكير في أمرها، ثم حدث أن انتهت مغامرته الأخيرة بما اضطره إلى الزهد في حياة المغامرات والعودة إلى التفكير في ابنة عمه الجميلة اللطيفة التي طالما سعد بنظراتها وابتساماتها وأحاديثها.

وكان الحادث الذي اضطره إلى ذلك أن زوج المرأة التي اختارها بطلة لمغامرته الأخيرة كان عملاقاً غيوراً قوي العضلات، فما كاد يعلم بأنه يحوم حول زوجته حتى ترصد له وانهال عليه باللكمات والصفعات حتى كاد يقتله!

ولاحظ تيبالدو اصفرار وجه جولييت وشدة اكتئابها، وما أن علم منها بأن أبويها يريدان إرغامها على الزواج بالكونت لودرون، حتى ثارت الغيرة في صدره وقال لها:

– كيف يكون هذا.. كلا يا جولييت كلا!.. ثقي بأن ذلك الزواج لن

يتم أبداً.. وإذا أصر عليه ذلك الكونت الدنس المنغمس في الرذائل، فإن سيفي كفيل يزجره وردعه وتأديبه ليكون عبرة لسواه.

وجلس تيبالدو يسليها ويلاطفها بشتى الأحاديث، وقد اعتزم أن يصرح لها فيما بعد بأنه سيخطبها لنفسه إذ هو أولى بها من أي انسان آخر وكأنها أنست هي إلى ملاطفته، وأرادت أن تخفف بعض ما تعانيه من حبها المكبوت لروميو، فقالت له:

– نقد اختار لي أبي قبل ذلك نبيلاً أعور ثقيل الظل هو رونزولوني وها هو ذا يختار في ذلك الكونت الفاسد الخلق، ولكني ما كنت لأستطيع قبول الزواج هذا ولا ذاك، لأني وهبت قلبي لآخر منذ زمن بعيد.

وملأ الزهو والخيلاء وجه تيبالدو، إذ حسب أنها تعني حبها له هو.

وقال لها في حماسة وهو يضع يده على مقبض سيفه:

– هوني عليك يا ابنة العم، وكوني على يقين من أنك لن تتزوجي إلا من تحبين!

وازدادت جولييت اطمئناناً إليه، فمضت في اعترافها قائلة:

– لقد أحببته من كل قلبي حباً طاهراً شريفاً، وبادلني هو هذا الحب وتعاهدنا على أن يكون كل منا للآخر، ولكني لا أستطيع أن أصرح لوالدي بأني لا أريد الزواج بأحد غير روميو مونتيكي.

وجن جنون تيبالدو، ونهض ثائراً وهو يقول:

– ماذا تقولين؟.. أنت تحبين روميو مونتيكي؟! إن هذا جنون، أي عار

ألحقت بآل كابلليني.. كلا.. كلا!... هذا شيء لا يمكن السكوت عليه.

ثم خرج مهرولاً وذهب إلى حيث كان عمه جالساً مع زوجته، فابتدرهما قائلاً وهو ما زال غاضباً ثائراً:

– أية فضيحة هذه؟.. أن ابنتكما تحب روميو مونتيكي وهو يحبها! أين كانت رقابتكما عليها حتى ألحقت بالأسرة هذا العار الشنيع؟!

ومضى في ثورته وحنقه بضرب المائدة التي أمامهما بقبضته حيناً، ويذرع جوانب القاعة مرغياً مزبداً حيناً، وهما ذاهلان يتبادلان نظرات الدهشة والاغتمام، ثم لم يستطع السيد مونتيكي صبراً على ذلك فصرخ فيه قائلاً:

– ماذا أصابك يا تيبالدو؟.. إنك تزعجنا بحماقتك هذه، أن كونك ابن المرحوم أخي لا يسمح لك أبداً بأن تقف في حضرتي غير موقف الأدب والاحترام، أغرب عن وجهي الآن أيها الولد الوقح المجنون!

ولم يسع تيبالدو إلا أن يغادر قصر عمه وهو يرغي ويزبد ويبصق على الأرض ويضربها بقدميه مزمجراً كأنه أسد طعين مثخن بالجراح.

لم تجد محاولات السيد كابلليتي ولا زوجته شيئاً في سبيل الوقوف على حقيقة العلاقة بين ابنتهما روميو، فقد أصرت جولييت على الإنكار كما أصرت أوزيبيا وكل خدم القصر على إلا علم لهم بشيء عن تلك العلاقة الآثمة الخطيرة التي أكد تيبالدو أن جولييت اعترفت له بها.

وفكر الوالدان في الأمر ملياً، فلم يجدا خيراً من التعجيل بزواج ابنتهما

بالكونت لودرون، ولم تمض أيام حتى دعاه السيد كابلليتي إلى قصره وقدم له جولييت قائلاً:

– هذه هي جولييت ابنتي يا كونت، ولا شك أنها فرحة فخورة بهذا اللقاء السعيد.

وكان الكونت لودرون في الثلاثين من عمره، معجباً بوسامته وأناقته وثقافته، وقد ارتدى معطفاً سميكاً من الفراء الثمين حلى بالأشرطة والسلاسل الذهبية، ورائحة المسك تفوح قوية من أردافه، فركع أمام جولييت وتناول يدها متلطفاً وطمع عليها قبلة رقيقة، ثم قال متظرفاً:

– يشرفني جداً أن أسعد بالمثول بين يدي الآنسة النبيلة المهذبة. ولا شك أن أقدر العارفين بالحان لا يمكن أن يجدوا من تداني الآنسة في هذا الجمال والجلال!

وحينما استقر بهم الجلوس، حرص السيد مونتيكي وزوجته على أن تجلس جولييت إلى جوار خطيبها الجديد، ليحاول أن يكتسب قلبها بحديثه العذب حسب الاتفاق، فأخذ يحدثها عن الحكماء والفلاسفة وأبطال العصور القديمة، وعن الروائح العطرية النادرة التي جلبها من بلاد العرب، وعن رحلاته للصيد والقنص، وألوان الطعام الحديثة التي كان أول من قدمها على موائده في المآدب والحفلات التي يقيمها بقصره الشاهق الجميل.

وكان خلال ذلك شديد الحرص على أن يظهر لها وسامته وقوته وأناقته في حركات وإشارات متكلفة، ثم دخل في الموضوع الذي جاء لأجله فقال لها:

– في أي فصل من فصول العام تفضل سيدتي الجميلة أن يتم الزفاف؟!

وكان صبر القناة قد نفذ، ولم يسعها أن تستمر في تمثيل دور الخطيبة السعيدة بخطيبها طبقاً لتعليمات أبويها، فأجابته قائلة:

– الواقع أني لا أريد الزواج في أي فصل من فصول السنة، وقد اعتزمت أن أهب نفسي لله وأعيش عيشة الراهبات!

وأطلق الكونت ضحكة عالية متكلفة، إذ حسبها تمازحه، ثم قال لها:

– أن مثل هذا الشعور يا سيدتي ينتاب كثيراً من الفتيات قبيل الزواج، وذلك لكثرة تفكيرهن فيما ستكون عليه حياتهن الجديدة في وسط آخر غير الذي نشأن فيه.

تم ضحك مرة أخرى وبالغ في تظرفه قائلاً:

– على أني واثق كل الثقة بأن شهر سيدتي لابد أن يكون على عكس ذلك تماماً، فذلك شأن كل فتاة تعرف أنها ستغادر دار أهلها لتحيا حياة أجمل وأسعد في دار زوجها، ولاسيما إذا كانت حياتها الجديدة في قصر عظيم لا تنقطع منه المآدب والحفلات، ومع زوج محب مطيع لا يدخر وسعاً لكي يهيئ لها كل ما تتوق إليه من رحلات مسلية ومباهج مختلفة وذرية جميلة صالحة.

وجاهدت جولييت عواطفها وأطرقت ساكتة محاذرة أن تبدو منها بادرة أخرى تفضح شعورها إزاء الكونت المتظرف السخيف، فيغضب أبوها وينفذ ما تهددها به من إرسالها إلى الدير، في حين أنها اتفقت مع روميو على أن

تتظاهر أمام والدها بقبول ذلك الخطيب الجديد، ريثما يدبر حيلة لإقصائه من طريقها كما حدث في شأن الخطيب السابق.

وظن الكونت أنها أطرقت حياء وخفراً، فابتسم مزهواً بنفسه، ومضى يلقي على سمعها حديثاً طويلاً ثقيلاً من مزايا الحياة عند الفتيات قبل الزواج.

ثم انصرف أخيراً بعد أن ودعها بمثل تلك الحركات المسرحية البهلوانية، وشيعه أبواها بكل إجلال وإعجاب!

سمع السيد كابلليتي ضجة بباب قصره وهو جالس فيه ذات صباح، ثم جاء إليه أحد الحراس وأخذ يعتذر عن وقوع تلك الضجة قائلاً:

– أن قزماً أحدب جاء إلى القصر مبكراً وزعم أنه يريد مقابلة سيدي في شأن خاص، فلما لم تجز حيلته علينا وطلبنا منه أن ينصرف ثم يعود بعد الظهر لينال نصيبه من فضلات الطعام والشراب، رفض أن برف وأحدث تلك الضجة.

وأمره السيد كابلليتي بإحضاره إليه، وما أن وقعت عليه عيناه حتى بدأ الاشمئزاز في وجهه وبصق على الأرض، ثم صاح به من بعيد قائلاً:

– ما هذا؟.. أمجنون أنت؟!

فرفع القزم الأحدب وجهه المشوه متحفزاً للكلام، ثم تقدم خطوات إلى الأمام في مشية غريبة مضحكة لقصر في إحدى ساقيه وانخفاض إحدى كتفيه عن الأخرى، وقال بصوت أجش يشبه نقيق الضفادع.

– لدي أمر خطير كبير الأهمية، وقد جئت لأبلغه إلى السيد المحسن الكبير فكاد الحراس يحولون دون قيامي بهذا الواجب.

فسأله السيد كابلليتي في غير اكتراث:

– ما هو هذا الأمر؟

فقال القزم الأحدب بعد أن التفت إلى الحراس الواقفين خلفه:

– إن ما جئت لأجله ينبغي ألا يسمعه أحد غير السيد عميد آل كابلليتي وحده!

فتفرس في وجهه هنيهه وهو يغالب التقزز من قبح منظره، ثم أشار إلى الحراس الواقفين أن ينصرفوا وقال له بعد انصرافهم:

– نستطيع الآن أن تقول كل ما لديك، على أن توجز كل الإيجاز، فاقترب القزم الأحدب خطوتين أخريين، ثم قال له:

– إن طارقاً غير مرغوب فيه زار هذا القصر ليلة أمس وبقيت أنفاسه الدنسة تتردد في بعض جوانبه الطاهرة حتى مطلع الفجر، وقد لمحته حينما هبط السور في خفة الثعالب لكنه اختفى في منحنيات الطريق قبل أن أتمكن من اللحاق به ورؤية وجهه.

فتذكر السيد كابلليتي عند ذلك ما كان تيبالدو قد نبأه به من أن هناك غراماً متبادلاً بين جولييت وروميو مونتيكي، لكنه طرد هذه الفكرة من ذهنه وسأل القزم الأحدب قائلاً:

– أكان لصاً؟.. وهل رأيته يحمل معه شيئاً؟

فهز القزم رأسه ذات اليمين وذات الشمال، ثم قال:

– نعم هو لص خطر ما في ذلك شك، لكنه لا يسرق إلا قلوب العذارى.

وهنا ارتجف السيد كابلليتي غضباً، إذ عادت إلى ذهنه فكرة الغرام المتبادل بين روميو وجولييت، ثم سأله مرة أخرى:

– كيف علمت أنه دخل القصر لأمر كهذا؟

فقال: "مررت بذلك الجانب من العصر سحراً، وكنت متعباً ولا أكاد أتبين الطريق لشدة الظلام، فأويت إلى السقيفة القائمة هناك، وفيما أنا أهم بالنوم، لمحت شبح ذلك اللص وهو يتسلق السور ويقفز إلى شرفة فوقه، ثم لبثت ساعتين وأنا أسمع همساً صادراً من هناك، وكان في توديعه عند انصرافه شبح يقف في تلك الشرفة متشحاً بالبياض!".

وهنا لم يسبق شك لدى السيد كابلليتي التي في صحة اتهام ابنته، وأخذ يفكر في وسيلة للانتقام وغسل تلك الإهانة، ثم استأنف الأحدب كلامه فقال:

– إن العاشق المجرم المجهول سيعود إلى فعلته التي يستحق عليها أشد العقاب و...

فقطع السيد كابلليتي كلامه وقال: "سأنتظره وأمزق قلبه بخنجري!".

فقال الأحدب: "إنه أمكر من ثعلب، فينبغي ألا نثير ارتيابه وحذره وإلا أفلت منا، وخير من ذلك أن نفرش الأرض في ذلك الموضع برماد يلصق بنعله نبهل علينا أن نقص أثره لنعلم أين يذهب بعد ارتكاب جريمته!".

فأومأ موافقاً وقال: "إنك لست غبياً، وسنفعل هذا، وويل لك إن كنت من الكاذبين!".

وفي الليلة التالية: التقى العاشقان، وكانت جولييت تشعر بقلق خفي يضطرم في نفسها، وشعر روميو بارتجافها بين ذراعيه فقال لها:

– اطمئني يا حبيبتي، إن الله سيخلصنا من هذا الخطيب الجديد كما خلصنا من سلفه، وسيكلل صبرنا بالفوز فنصبح زوجين أمام الله والناس، ولا تبقى لنا حاجة إلى التخفي والتكتم!

فتأوهت ونظرت إليه قائلة:

– ما أحسن أن يتحقق هذا الأمل أيها الحبيب، ولكنني خائفة.

– نعم يا روميو إنني أخاف العقبات التي تعترض سبيلنا.

وفيما هما كذلك، وصل إلى سمعهما صوت بلبل يغرد على غصن شجرة قريبة من الشرفة، وما لبث قليلاً حتى جاوبته أصوات لطيفة أخرى من البلابل المستقرة على الأشجار المجاورة، فبقي الحبيبان حيناً وهما يصغيان لموسيقى البلابل المغردة توديعاً لليل واستقبالاً للنهار، ثم طارت بعض العصافير فجأة ومرت قريباً منهما فأجفلت جولييت وازدادت التصاقاً بروميو، ثم همست إليه قائلة:

– آه يا روميو!.. ما أقسى أن يحال بين قلبينا المتحدين!.. أن تلك العصافير تستقبل النهار سعيدة مستبشرة، لأنها تمضي في نوره حرة طليقة، أما نحن..

ثم التفتت برأسها إلى الأفق الممتد أمام الشرفة وقد بدت تباشير الصباح، وبدأت أجراس الكنائس تطلق دقاتها المنتظمة فيختلط رنينها بتغريد الطير وحفيف أوراق الشجر، وعادت تهمس إليه قائلة:

- روميو.. ثم حانت ساعة الفراق عاجلة هكذا؟!.. أنا لا أريد أن نفترق أبداً!.. ولكني أخشى عليك الأخطار المحيطة بنا.

فقال لها وهو يضمها إلى صدره:

– لا تخشى شيئاً.. هناك عند أدنى السور رجل أحدب مسكين كلفته أن يرصد الطريق، وسأسمع صفيره منذراً إياي، إذا رأى ما ينبغي أن ينذرني به!

فبغتت وأفلتت ذراعاها من عنقه ووضعت يدها على قلبها قائلة:

– ماذا قلت يا روميو.. أهناك الآن من يعلم بأمرنا؟.. من يكون ذلك الرجل؟.. هل يحمل سلاحاً؟.. وهل أعطيته مالاً؟.. آه يا روميو، كم أنا خائفة!.. أنسيت ما ذكرته لي عن نبوءة المنجم لك في طفولتك؟.. ألم بذكر أن هناك خطراً على حياتك من رجل يأتي من الشرق، ويأخذ منك مالاً لقاء الشر الذي يصيبك منه؟!

فابتسم روميو وربت شعرها متلطفاً وقال:

– تلك خرافات تلوكها الستة المنجمين، وليس هناك ما يدعو إلى الخوف والقلق، فاطمئني واصبري، وليس بعد الصبر إلا الفرج بعون الله.

ثم حدق في عينيها وهو يبتسم وعاد بضمها إلى صدره في عطف وحنان،

ثم تبادلا قبلة الوداع، وقفز إلى السور ثم أخذ يهبطه وهي تتبعه بنظراتها حتى لم تعد تراه!

وبعد ساعة كان السيد كابلليتي يقف هناك عند أدنى السور، وبجانبه ذلك القزم الأحدب الخبيث، ثم أخذا يقصان أثر قدمي روميو عبر الطريق مهتديين بما تخلف عنهما من الرماد الذي ذره الأحدب الماكر هناك، إلى أن انقطع الأثر عند قصر آل مونتيكي، فعاد السيد كابلليتي إلى قصره وصدره يغلي غيظاً وحنقاً ورغبة في الانتقام.

وقرر أول الأمر أن يزج بجولييت في السجن لتقضي فيه

بقية حياتها مكفرة عن الذنب الذي اقترفته، ثم رأى أن يستبدل الدير بالسجن، على أن زوجته ما زالت به تهدئ من ثورته، وتخفف غضبه، حتى رضي أخيراً بأن يعدل عن هذا وذاك صوناً لشرف الأسرة وكرامتها من القتل والقتال، على أن يعجل بزواج ابنتهما من الكونت لودرون خطيبها الجديد.

ثم خلت بعد ذلك إلى جولييت؛ وحدثتها بكل ما كان، طالبة منها أن تستغفر لذنبها، وأن تنسى إلى الأبد ذلك الفتى الذي حاول أن يلطخ شرفها وشرف أسرتها بالعار.

وبدأ الاستعداد للزواج منذ ذلك اليوم، دون أن تستطيع جولييت أن تبدي أي معارضة أو احتجاب ورغبة في التأجيل، ودون أن يبقى لديها أي أمل في لقاء روميو لتحذره ما يهدد حياته من الأخطار، فقد أصدر أبوها أمره بنقلها إلى غرفة أخرى بعيدة عن غرفتها الأولى.

الفصل الثامن

وفاء الحبيبين

زواج أمام الله

توجه روميو إلى قصر كابلليتي في الليلة التالية ليلقى جولييت في شرفنها كما تعودا، ولكنه وجد غرفتها مظلمة، وشعر بأن هناك من يرقبون الطريق، فعاد من حيث أتى واجف القلب حيران، واستمر يكرر محاولته بضع ليال دون جدوى، إلى أن تحقق انكشاف أمرهما، ونقلها إلى غرفة أخرى استعداداً لعقد زواجها بالكونت لودرون.

وضاقت عليه الأرض بما رحبت، ولم يستطع صديقه مركوتشيو أن يسعفه بحل عاجل لهذه المشكلة، فلاح له أن يلجأ إلى الأب لورنزو أستاذه القديم ليشاوره في الأمر، وكان هذا يعيش معتكفاً بين الأعشاب والنباتات التي يستخرج منها الأدوية في دير الآباء الفرنسيسكيين، وقد مضى عليه خمسة عشر عاماً لم ير خلالها روميو، فتلقاه مرحباً به، واستمع لحديثه عن مشكلته في عناية واهتمام، ثم قال له:

– أن مستقبل الفتاة يا بني منوط بإرادة والديها، وما داما قد أرادا لها الزواج من ذلك الكونت فليس لأحد أن يعارضهما في ذلك، ولست أرى أملاً في صلح قريب بين أسرتيكما، وعلى هذا لا مناص لك من الصبر والاستسلام لما يجري به القضاء.

وانصرف روميو يائساً وهو يتمتم قائلاً:

– أي صبر يمكن أن ينفع في مثل هذا الأمر، لا شيء غير الموت يستطيع أن ينقذني من هذا العذاب المرير.

ولبث الأب لورنزو طول يومه يصلي ويفكر في وسيلة ينقذ بها تلميذه العاشق والفتاة التي عاهدته على الوفاء.

ثم فوجئ في اليوم التالي بأن جاءت إليه جولييت في صحبة أمها، مبدية رغبتها في أن تعترف أمامه، فلما خلا إليها انفجرت باكية على كرسي الاعتراف وقالت له:

– إنني أحب روميو مونتيكي، ولا أريد به بديلاً أياً كان، ولكن أبي يريد أن يزوجني بآخر لا أشعر نحوه بغير الازدراء، بل إني أؤثر الموت والسجن على الزواج به، وأنا أعرف إنك تحب روميو وتقدر نبل نفسه وطهارة قلبه، ولهذا جئت ألتمس عندك مخرجاً من هذا المأزق.

وطرق الأب لورنزو قليلاً وهو يتمتم ببعض الصلوات والأدعية، ثم قال لها في صوت ينم عن الشفقة والرثاء:

– ماذا أستطيع أن أصنع لأجلكما يا بنيتي؟ إن العداء بين أسرتيكما لم يدع هناك أي أمل في تحقيق حلمكما الجميل النبيل!

فقالت له: لقد لاحت لي فكرة الآن.. أن روميو يستطيع أن يحضر إليك هنا وأن يجلس على كرسي الاعتراف الملاصق لهذا الكرسي.

ثم سكتت وأخذت تنظر إليه ذاهلة، وواصلت بعد ذلك كلامها فقالت:

– لن يساور والدتي أي شك في أن روميو مونتيكي يمكن أن يكون جالساً إلى جواري هنا، فمن الممكن أن يحضر قبلنا ويجلس على كرسي الاعتراف دون أن تراه.

فقال لها وهو يقلب كفيه متسائلاً: وأي فائدة لكما في ذلك، هل هذا يمنع زواجك من الفتى الآخر الذي اختاره أبواك؟!.

فقالت: نعم يا أبي: أنه يمنع ذلك الزواج البغيض، بل يحول دون موتي وموت روميو غماً وكمداً.. ولا يقتضي الأمر إلا أن توافق أنت".

فجحظت عينا الراهب الشيخ وفغر فاه دهشة، بينما واصلت هي همسها له ودموعها تبلل خديها قائلة:

– في استطاعت أيها الأب الشفيق، أن تعقد زواجنا أنا وروميو ونحن هنا بين يديك، وبذلك تضع أسرتينا أمام الأمر الواقع، ولا يبقى هناك من يستطيع أن يحل الرباط المقدس الذي ربطت به بين قلبينا!

وزفر الأب لورنزو زفرة حارة، وهز رأسه أسفاً، وقال لها:

– هذا حق يا بنيتي، ولكني لا أستطيع الإقدام على عمل كهذا، لا شك في أنه يثير غضب آل كابلليتي وآل مونتيكي معاً!

فجثت جولييت بين يديه، وتناولت يده وراح تقبلها، ثم قالت له:

– ما الذي تخشاه يا أبي، أن أهل المدينة جميعاً على يقين من صلاحك وتقواك، ولن يداخلهم أدنى شك في حسن نيتك ونبل قصدك وابتغائك وجه الله والصالح العام، أن أسرة ديللا سكالا حاكمة فيرونا ما زالت تسعى جاهدة

للصلح بين آل مونتيكي وآل كابلليتي، وليس ثمة أي ريب في أنها ستتلقى صنيعك هذا بالحمد والاغتباط، لأنه خير ما يؤيد مساعيها النبيلة لنشر الأمن والطمأنينة في المدينة.

وفكر الأب لورنزو ملياً في هذا الأمر، ثم مد يده وربت كتف الفتاة الراكعة الدامعة أمامه؛ واستمر قائلاً لها:

– لتكن إرادة الله، انهضي يا بنية وكفكفي دموعك واطمئني، سيأتي روميو إلى هنا في الساعة السابعة بعد ظهر يوم الاثنين القادم فيجلس على هذا الكرسي الذي بجانبك، وبعد ساعة تحضرين أنت ووالدتك.

ولم تجد جولييت أية عقبة في سبيل حضورها إلى الكنيسة في ذلك الموعد، فقد اعتقد أبواها أنها تريد أن تطهر نفسها بالاعتراف قبل زفافها القريب إلى الكونت لودرون، وصحبتها أمها راضية مطمئنة جذلة إلى الكنيسة، وبقيت في انتظار فراغها من إكمال اعترافاتها وهي تصل هناك قريباً من المذبح، إلى أن أتم الأب لورنزو مراسيم الزواج، ودعا للزوجين الحبيبين بالسعادة والتوفيق.

علم تيبالدو من أحد خدمه أن قزماً أحدب يغشى حانات المدينة كل مساء، منفقاً على أصدقائه من الدهماء والمرتزقة بسخاء، وأنه يزعم للمستمعين لثرثرته في كل حانة يغشاها أن ذلك المال الكثير الذي ينفقه جاءه من السيد كابلليني مكافأة له على كشف سر خطير كاد يلحق العار بأسرته الكبيرة.

وأدراك تيبالدو أن ذلك السر ليس سوى الغرام المتبادل بين ابنة عمه

وروميو مونتيكي، فعاوده حقده على روميو، وقرر أن يغتال حياته، ثم أخذ يعد لذلك عدته، فاختار اثنين من أعوانه، ثم كمن ثلاثتهم في طريق روميو حتى بصروا به ذات ليلة عائداً إلى قصره ومعه مركوتشيو صديقه الحميم، وحينئذ خرجوا عليهما وتقدم تيبالدو وهو يحجب وجهه بقبعته وياقة معطفه فتحرش بمركوتشيو وصدمه صدمة عنيفة كادت تطرحه أرضاً.

وتحفز روميو لتأديب ذلك الشخص الوقح الطويل اللسان، ولكن مركوتشيو قال له: "لا علمت يا صديقي، إنه سكران!".

ولكن تيبالدو عاد يقول: "لو أنني سكران لأفقت بالغثيان لمنظركما" وهنا ضحك روميو، ثم قال لتيبالدو دون أن يعرفه:

– لن نكلفك عناء إفراغ ما في جوفك لكي تفيق، وإذا لم تكف عن هذرك فسأفتح كرشك بسيفي هذا لأخلصك مما فيه من شراب رديء.

وسرعان ما استل تيبالدو سيفه من غمده وهجم به على مركوتشيو، بينما استل زميلاه البابويان سيفيهما وهجما على روميو.

واستطاع تيبالدو أن يجرح مركوتشيو في ثلاثة مواضع من وجهه وجسمه، وما زال يشدد الهجوم عليه حتى اضطره إلى التقهقر متخاذلاً حيث استند إلى جدار نافورة هناك كيلا يختل توازنه، أما روميو فاستل سيفه بسرعة متلقياً به مبارزيه، وقد أدرك أن في الأمر شركاً منصوباً ثم سرعان ما دس نصل سيفه في ذراع أحد الرجلين، ثم هجم على الآخر فصلم إحدى أذنيه، ولم يشأ أن يتعقبهما بعد أن لاذا بالفرار صارخين مولولين، بل انطلق إلى حيث كان تيبالدو قد ضيق الحصار على مركوتشيو وكاد يفتك به، وفي مثل لمح البصر

أطال قبعة تيبالدو عن رأسه بضربة فنية أخرى، ثم عرفه بعد انكشاف وجهه فصاح قائلاً:

– تيبالدو كابلليتي؟.. دعه لي يا مركوتشيو، أنه يريدني أنا!

وحول تيبالدو هجومه إلى روميو، عاجله بضربة أودعها كل قوته وحقده، على أن روميو عرف كيف يروغ من هذه الضربة، وفي الوقت نفسه استطاع أن يطير سيف تيبالدو من يده بضربة فنية سريعة بارعة، ثم وقف يضحك ساخراً منه إذ رآه وقد تملكه الذعر والاضطراب.

على أن تيبالدو لم يعتبر بهذه التجربة القاسية، ولا بتورع روميو عن قتله في يسر وسهولة خلال الفترة التي جرده فبها من سلاحه، فما كاد يصل سالماً إلى حيث استقر سيفه على الأرض حتى التقطه، ثم كر شاهراً إياه في يده ليعاود النزال وعيناه تقدحان بشرر الحقد والبغضاء.

وضحك روميو مرة أخرى وقال له في صوت هادئ رزين:

– حسبك يا تيبالدو، وأغرب عن وجهي، فليست بي حاجة إلى قتلك:

ولكن تيبالدو ركب رأسه ومضى في هجومه غير عابئ بتلك النصيحة.

وهنا لم يسع روميو إلا أن يتلقى هجماته بأشد منها، ولم تمض دقائق حتى عاجله بضربة رأسية نفذ بها نصل سيفه الحاد في كرشه واخترق قلبه ونفذ من ظهره، فترنح متوجعاً وسقط على الأرض فاقد الحراك.

وشهد زميلاه مصرعه وهما يرقبان المعركة من بعيد، فعلا صراخهما، وأخذا يستنجدان بالحراس، بينما سارع مركوتشيو إلى روميو وجذبه من كتفة

وهو مكب على جثة تيبالدو يحاول إسعافه، وهتف به قائلاً:

– ماذا تنتظر يا روميو؟.. هيا.. أما ترى الحواس قادمين برماحهم ؟؟ من أقصى الشارع؟!

وظهرت على أثر ذلك أضواء في توافد بعض الدور القريبة، وفتحت أبواب هنا وهناك وبدت أشباح السكان الذين استيقظوا على أصوات الاستغاثة تتحرك في اتجاه ميدان المعركة، فنهض روميو وانطلق هو ومركوتشيو راكضين بأقصى سرعتيهما حتى لا يلحق بهما المطاردون.

وهنا في أقصى الشارع، فوجئ روميو بشرذمة من الحراس المسلحين قادمين من الجهة الأخرى، فسقط في يده ووقع بين نارين، و بقي هنيهة حائراً يدور حول نفسه ويدور رأسه حوله، ثم قفز بكل قوته إلى شرفة قريبة منه، وتسلق النافذة التي كانت تعلوها حتى بلغ سطح الدار فصعد إليه في اللحظة التي وصل فيها القادمون وراحوا يسددون إليه سهامهم صائحين محذرين، ولكنه كان قد أفلت من أيديهم وسهامهم إذ قطع عرض السطح زحفاً على بطنه وهبط في أقصاه إلى حديقة مجاورة تابعة لدير الآباء الكوردااليين.

وفي صباح اليوم التالي، جاء السيد البرانو ديللا سكالا حاكم المدينة بنفسه إلى الدير، وأخرج منه روميو، ولكيلا تنشب الحرب بين أسرتي كابلليتي ومونتيكي، حكم بنفيه من فيرونا، وبأن يغادرها إلى مانتو قبل أن تغرب شمس ذلك النهار.

و كانت جولييت قد استيقظت على الضجة التي ملأت قصر أبيها،

وهرعت إليها أوزيبيا ودخلت عليها غرفتها تبكي وتولول وتندب قائلة:

– يا للهول.. يا للنكبة النكباء والداهية الدهياء!.. لقد مات!

وشهقت جولييت شهقة قوية، وكاد قلبها يقف من هول الفجيعة التي شعرت بها، إذ انصرف ذهنها دون تفكير إلى روميو:

ولكن أوزيبيا استمرت في ولولتها وندبها وأخذت تقول:

– ويل لآل مونتيكي، لقد قتله روميو ابنهم!

وهنا أحست جولييت أن موجة ثلجية غمرتها، وصاحت بأوزيبيا قائلة في لهفه:

– ماذا حدث؟ تكلمي يا أوزيبيا! فقالت لها: لقد مات تيبالدو قتيلاً بيد روميو مونتيكي!".

وانقضت جولييت، ثم تملكها الذهول و تهالكت على مقعدها كالمغمى عليها، ولم تدر أتفرح لسلامة روميو حبيب القلب والزوج الشرعي أمام الله؟. أم تحزن لمصرع تيبالدو ابن عمها ورفيق صباها.

وبقيت حتى العصر وهي ذاهلة مشدوهة، ومن الفينة والفينة تتأوه أو تصعد الزفرات مرددة:

– روميو.. تيبالدو.. تيبالدو.. روميو!

وما علمت بعد ذلك بأن الحاكم مضى للقبض على روميو، لم يعد في ذهنها أي صورة لغير روميو والخطر المحدق بحياته، ولم تقو على تحمل الفرحة بنجاته من القتل، فأغمى عليها حين علمت بأن الحاكم اكتفى بأن نفاه.

وأفاقت الفتاة من إغمائها، فإذا أبوها قد عاد إلى القصر، ثم إذا هو يأمر بأن يزج بها في غرفة السجن بأعلى القصر، وأن تترك فيها حتى تغادر القصر إلى قصر زوجها المنتظر بعد انتهاء الحداد.

وكان السيد كابلليتي في حال من الغضب والثورة لم تجرؤ معها زوجته على أن تستعطفه أو تسأله الرأفة بابنتهما الحزينة المريضة، فشيعتها إلى تلك الغرفة مواسية، وتركت معها هناك أوزيبيا لتؤنس وحدتها وتسليها، وقبل أن تنصرف الأم سمعت ابنتها تهتف باسم روميو، فالتفتت إليها وصاحت بها قائلة:

– لا تتعلقي بالمحال يا جولييت، أن روميو قد انتهى من فيرونا، ويجب أن يختفي من أفق حياتك لكي تنعمي بزواج سعيد.

ولم تنبس جولييت ببنت شفة، وبقيت على صمتها وذهولها يومين كاملين، لم يدخل في جوفها خلالهما غير الماء وقليل جداً من الطعام.

وفي اليوم الثالث استيقظت أوزيبيا من مرقدها أمام فراش جولييت، فلم تجدها فيه، ووجدتها تتسمع عند باب الغرفة إلى أغاريد العصافير وهي تردد اسم روميو، فصاحت بها.

– أي حماقة هذه وأي جنون... إن هذا الاسم يجب أن يمحى من ذاكرتك.. إنه قاتل تيبالدو ابن عمك الحبيب!

فتنهدت جولييت وتساقطت دموعها على خديها وقالت تحدث نفسها:

–كيف؟. كيف لا أذكر اسمه وكيف لا أحبه؟ إنه حبيبي وزوجي أمام الله!

ولم يتطرق إلى ذهن المرضع أن ما سمعته ليس سوى اعتراف من جولييت سبق به لسانها برغم حرصها على كتمان أمر ذلك الزواج، وظنت المرضع الخالية الذهن والقلب أن الأمر لا يعدو أمنية ترددها الفتاة العاشقة، ومضت إليها ووقفت بها على الباب بعد أن فتحته، ثم أشارت إلى مناظر الحقول والبساتين الممتدة أمامهما وقالت لها:

- ارجعي إلى عقلك يا بنية.. إنك ستزفين إلى زوجك الكونت لودرون بعد أيام، وأنت ما زلت في مقتبل صباك، ومجال السعادة أمامك فسيح.. فهيا سرحي بصرك في هذا الأفق المشرق حيث الخضرة الزاهية يتخللها ماء الأديج الفضي اللامع، والجبال الشاهقة والروابي المرتفعة تحيط به.. إن هذا كله خليق بأن يوحي إليك بحب الحياة!

ونظرت جولييت إلى مرضعها الحنون الطيبة القلب في أسف وأسى، ثم ارتمت على صدرها باكية وقالت:

كل هذه المناظر والمباهج كانت رائعة ممتعة حينما كنا نستمتع بها معاً!. أما الآن فلست أرى إلا صورته، ولست أسمع غير صوته، إنه ملء قلبي يا أوزيبيا.. إن حبه يسري مع الدم في عروقي وأعصابي.. آه!. لو أنني أستطيع اللحاق به.. أنني على استعداد لأن أقص شعري وأرتدي ثوب خادم أو حامل سلاح إذا كان هذا يقربني إليه.

وبعد أيام كان الاستعداد لزفاف جولييت قد أوشك أن يتم، وأقبلت الهدايا تترى على قصر آل كابلليتي من صهرهم المختار إلى ابنتهم التي أعجبه

جمالها وخفرها وحياؤها، وصدق ما توهمه من أنها شغفت به حباً بعد أن أعجبت بوسامته وأناقته وظرفه وفلسفته وذكائه اللامع اللماح!

و كانت هداياه إليها كثيرة منوعة غالية نادرة منتقاة بعناية! وكان بينها عقود وأقراط وأساور وخواتم من اللؤلؤ والجواهر الثمينة الأخرى، وقد وضعت كلها في علب جميلة من الأبنوس المفضض أقفالها من الذهب ثم وضعت هذه العلب في ثلاثة صناديق من الجلد قرمزية اللون، يحيط بكل منها في كل صندوق ألوان من الثياب الحريرية والدمشقية والأدوات والتحف الثمينة بين أمشاط من عاج منقوش، وأزرار ذهبية ولؤلؤية وفراء من مختلف الأنواع والأحجام والألوان، وغير ذلك مما يليق بجهاز عروس نبيلة.

ثم أقام الكونت لودرون حفلة لإعلان خطبه جولييت له، استمر الاستعداد لها بضعة أيام، وأنفق فيها عن سعة وسخاء، ودعا إليها مع خطيبته وأبويها جميع آل كابلليتي وأنصارهم وأعوانهم، وكثير من نبلاء المدينة وفي مقدمتهم حاكمها الجديد السيد البرانو ديللا سكالا ورجاله.

ولا أزف الموعد لانتقال المدعوين على موائد الطعام والشراب، جاء وصفاء القصر بماء معطر غسلت به جولييت يديها، وكان هذا الماء المعطر موضوعاً في إبريق من الذهب يصب منه على يديها وصيف، بينما يقف وصيف آخر ليتلقى الماء تحت يديها في إناء من الذهب أيضاً، وآخر يمسك كفيها حتى لا يبلها الماء إلا بمقدار! ثم جلست مع خطيبها أمام إناء واحد كالمعتاد، واستمر المدعوون يأكلون ويشربون من العصر إلى الفجر، ولم تنطق جولييت بكلمة طول الحفلة.

خفت الرقابة المفروضة على جولييت بعد تلك الحفلة، فانتهزت هذه الفرصة وتسللت خارجة من القصر، قاصدة دير الآباء الفرنسيسكانيين، بعد أن تنكرت في ثوب خادمة والتفعت بمئزر غطى كتفيها ووجهها ورأسها.

وخف الأب لورنزو لاستقبالها، فابتدرته قائلة:

- أدركني يا أبي؟.. ماذا أصنع؟. لقد حددوا زفافي بعد أيام، وأنك لتعلم أني زوجة لروميو المنفي في مانتو، وما كنت لأقبل أن يدنسوا ما بيننا من رباط مقدس، ولهذا جئت أستشيرك فيما أصنع!

ولم يكن الأب لورنزو قد علم شيئاً عن ذلك الزواج الجديد، لانقطاعه إلى شئون الدين والعبادة واستخراج الأدوية من النباتات والعقاقير، ومن هنا أذهلته المفاجأة فلم يحر جواباً، وواصلت هي كلامها فقالت:

– لا شيء غير الموت يخلصني من هذا المأزق.

فأجفل الراهب الشيخ وقال لها: – توبي إلى رشدك يا بنية.. إن الله لا يريد لأبنائه الموت.

فقالت: "إذن.. قل لي ماذا أصنع؟"

ففكر قليلاً ثم نظر إليها ويده على لحيته وقال لها:

– هناك أدبار كثيرة تستطيعين أن تعيشي في أحدها تصلين وتتعبدين مع من فيه من أخوات راهبات تقيات نقيات.

فقالت متبرمة: "لكني متزوجة، فخير إلى أن أموت وأن ينتظر جسدي تحت التراب ذلك الذي صار يملكه أمام الله".

فبدا القلق والأسف في وجه الأب لورنزو، ثم التفت إليها فجأة وقال لها وعلى شفتيه ابتسامة رقيقة:

– انتظري قليلاً يا ابنتي.. عندي لك دواء ناجح كفيل بأن يحول دون زفافك إلى من لا يمكن أن يكون زوجك!

ثم تركها راكعة تنظر إليه بعينيها الدامعتين، وما لبث قليلاً حتى عاد ومد إليها يده بزجاجة صغيرة وهو يقول: "هاك يا بنية الدواء المطلوب".

فتناولتها منه بيد مرتجفة وتنهدت ثم قالت:

– حسناً!.. شكراً لك يا أبي.. هل أتجرع هذا السم الآن لأموت في هذا المكان المقدس؟!

فحدجها بنظرة عتاب وقال لها:

– لا تتفوهي بمثل هذا الكلام، إنك بهذا تخالفين وصايا الله، لقد خلصت نفسك المريضة بالحب من الخطيئة، وهأنذا أخلص جسدك، فهذا الذي في الزجاجة إكسير إذا شربته فسرعان ما تستغرقين في غيبوبة لا يشك من يراك أثناءها في أنك ميتة، وتستمرين كذلك ثلاثة أيام كاملة، وعلى هذا ليس عليك إلا أن تتجرعي دلك الإكسير قبيل زفافك غير المشروع، فلا تمضي دقائق حتى يعتقد الجميع أنك فارقت الحياة، وسيدفنونك خلال ذلك في مقبرة آل كابلليتي القائمة وسط مقبرة الدير خارج هذه الكنيسة، وحينئذ

آني أنا إليك هناك وأنقلك إلى هنا، ثم أصطحبك متنكرة في سفرنا القريب إلى مانتو حيث نحضر مجمع الرهبان الذي سيعقد فيها، وأسلمك إلى زوجك هناك.

ولم تتمالك جولييت عواطفها فانفجرت باكية لفرط اغتباطها بالخلاص، ثم قبلت يد الراهب الشيخ مكررة شكرها له وثناءها على ورعه وتقواه، وعادت إلى القصر دون أن يشعر أحد بدخولها أو خروجها.

وفي اليوم التالي أرسلت جولييت مرضعها أوزيبيا إلى الدير تستقدم إليها راهباً كان قد التحق به حديثاً وعهد إليه في كتابة المزامير وما إليها، وأملت عليه خطاباً لترسله إلى روميو قالت فيه:

– "عزيزي روميو.. إن السماء لم ترض أن أصير زوجة لذلك الكونت الأحمق السخيف، فقد أعطاني الأب لورنزو إكسيراً لأتناوله قبيل إتمام ذلك الزواج الذي لا يرضى عنه الله، وحينئذ يحسبني الجميع فارقت الحياة، ثم يدفنوني في مقبرة الآباء الفرنسيسكانيين، وهناك أفيق من غيبوبتي في اليوم الثالث، وهو يوافق اليوم العاشر من الشهر الحالي، فعليك أن تحضر إلى فيرونا وتأتي إلى هناك في ذلك الموعد لكي نغادر المدينة معاً ونعيش في أي مكان حسب شريعة الله، بعيداً ممن يريدون أن يحولوا بظلمهم دون تنفيذ إرادته".

ثم جاءت إليها أوزيبيا بأخ لها في الرضاع يدعى (بيبو) وهو كهل ثقيل السمع واللسان فيه سذاجة ملحوظة، فكلفته الذهاب إلى مانتو وتسليم الخطاب إلى روميو مونتيكي هناك، فتناول الخطاب وأومأ مطيعاً وانصرف به وهو يقول "سيكون عنده قبل مساء الغد".

الفصل التاسع

اللقاء الأخير

زفاف إلى الموت

حرص السيد كابلليتي والكونت لودرون على أن يكون الاحتمال بزفاف جولييت أفخم وأروع ما شهدت فيرونا خلال تاريخها الطويل من احتفالات.

ومنذ صباح ذلك اليوم أخذت أجراس الكنائس تدق دقات الابتهاج، واحتشد في ميدان الكنيسة جمهور كبير من أهل المدينة وضواحيها لمشاهدة موكب العروسين، وعهد إلى عشرات من الحراس بالمحافظة على النظام.

وأخذ قصر كابلليتي زخرفة، وأقيمت الزينات داخله وخارجه على طول الطريق إلى الكنيسة، وأخذ المدعوون يفدون إليه زرافات ووجداناً وكلهم في أفخم الثياب وأغلاها، وهناك في إحدى القاعات الكبرى بالطابق الأول عرضت الهدايا النفيسة التي قدمت للعروس، وبينها هدايا زوجها وأبويها وأصدقاء أسرة كابلليتي، ووضعت هدايا الحكام على حدة تتوسطها هدية السيد البرانو ديللا سكالا حاكم المدينة، وهي مؤلفة من سلسلة ذهبية بها حبات كبيرة من اللؤلؤ وأحجار من الياقوت، وقطعة من الصليب المقدس لا يموت من يمسها إلا وهو في نعيم.

ولزمت جولييت غرفتها حتى العصر، ثم جاءت الوصائف فألبسنها ثياب العرس بإشراف والدتها وأوزيبيا، وكان الكونت لودرون في انتظار موكبها

أدنى السلم على رأس نخبة من المدعوين والمدعوات فاستقبلها مبتسماً فاتحاً ذراعيه، فأمسكت ذراعه وسارت بجانبه في مقدمة الموكب إلى الكنيسة، بينما أصوات الأبراق ورنات الأجراس تدوي في الأرجاء مختلطة بأنغام الموسيقى وهتافات الجماهير المحتشدة على طول الطريق.

وكانت جولييت قد غافلت أوزيبيا قبل هبوطها السلم وتجرعت الإكسير الذي أعطاها إياه الأب لورنزو، فما كادت تبلغ باب الكنيسة حتى شعرت بأن مفاصلها تتراخى، وبأن ضجة الاحتفال تخفت قليلاً قليلاً حتى كادت تتلاشى، وغامت المناظر أمام عينيها، واشتدت صفرة وجهها، وأبطأت دقات قلبها، ثم ترنحت وخرت ساقطة على عتبة الكنيسة بعد أن أفلتت يدها ذراع الكونت المتأنق المتظرف المتفلسف، موقف يحملق فيها مشدوها وقد استولى عليه الفزع والاضطراب!

وسكتت أصوات الأبواق وأجراس الكنائس، وساد الوجوم جميع الحاضرين والحاضرات، ثم دعي كبار أطباء المدينة على عجل ففحصوا جثة الفتاة فحصاً دقيقاً، ثم قرروا نقلها إلى قصر أبيها، حيث فحصوها هناك مرة أخرى، ثم شاوروا فيما بينهم، وتقدم كبيرهم فانحنى أمام السيد كابلليتي وزوجته وهما واقفان يتبادلان النظرات في ذهول وقال لهما:

– لقد ماتت العروس متأثرة بفرحها الشديد!

وهكذا خيم المساء على فيرونا وقد تبدل فرحها ومرحها حزناً وكآبة وانقباضاً، وجللت الزينات المقامة بالسواد، ودقت أجراس الكنائس دقات الحزن، وأقيمت الصلوات فيها كلها على روح العروس الشابة النبيلة الحسناء.

وخرجت المدينة كلها في اليوم التالي تشيع جنازة جولييت، ومشى والدها في طليعة المشيعين ومنظرهما الحزين يفتت الأكباد، وبجانبها الكونت لودرون مرتدياً ثوباً أسود حرص على أن يبدو فيه أكثر أناقة منه في ثوب الزفاف!

ولم تنقطع أوزيبيا الحنون عن البكاء والنحيب حتى انتهى الأب لورنزو من كلمة التأبين المؤثرة التي ألقاها أمام جثمان الفتاة المسجي في التابوت قبل أن يوضع فوقه الغطاء، ثم يحمل إلى حيث ترقد بجانب من سبقوها من آل كابلليتي في مقبرة الآباء الفرنسيسكانيين؟

لم يستطع روميو حين غادر فيرونا منفياً أن يأخذ معه إلا قليلاً من المال، وكانت هناك قافلة تجارية صغيرة في طريقها إلى مانتو، فقبلت أن يصحبها وخصصت له دابة ركبها، ولكن القافلة ما كادت تقطع بضعة أميال حتى خرجت عليها عصابه من قطاع الطريق، ففتكت بأرواح بعض افراد القافلة واستولت على جميع السلع والأموال والدواب، ولم يملك روميو ولا أحد غيره دفاعاً عن أنفسهم، إذ لم تكن معهم أسلحة كافية، بينما أفراد العصابة كلهم مدججون بالسلاح، ثم هم إلى ذلك كانوا يعملون لحساب دوق ليناجو.

لجأ روميو إلى أحد الأديار، ليقترض مالاً من أحد المرابين، أو أحد النبلاء، فتوجه إلى مانتو ماشياً، وآثر أن يكسب رزقه بكده فيها، فالتحق هناك بالعمل في محل لصنع السلال، كان يديره رجل طيب القلب، يعول أسرة كثيرة العدد، وقد أعجب بحسن خلق الصانع الجديد، وإخلاصه لعمله، وقناعته بالقليل الذي يحصل عليه، وكثيراً ما كان يطريه قائلاً:

- حقاً.. إنك لأهل أن تكون من أبناء النبلاء!

وفي مساء كل يوم كان روميو يمضي بعد فراغه من عمله إلى مدخل المدينة ليرصد القادمين إليها من فيرونا ويسألهم متلهفاً عما تم في أمر جولييت.

ولم يكن هؤلاء من يستطيع معرفة شخصه، إذ كانت هيئته قد تغيرت لفرط تأثره بفراق الحبيبة التي هي زوجته أمام الله، وقد علا التراب وجهه والثياب الريفية البسيطة التي يرتديها، وكانت الأنباء التي يستطيع الحصول عليها تبدو متناقضة، مما زاد في قلقه وحيرته وأساه.

وشاء القدر أن يحل وباء الطاعون بمدينة مانتو في تلك الأيام، فساد الفزع والرعب أرجاءها، وهاجر منها كل من استطاع المهاجرة من أهلها فراراً بأرواحهم من ذلك الوباء الفتاك، بينما بقي الفقراء والضعفاء ليهلك منهم عشرات في كل يوم وكان بعضهم يسيرون وأكفانهم ملفوفة حول أجسامهم مخافة أن يدفنوا عراة، كما كان بعضه يمضون إلى المقابر بأنفسهم ليسهل دفنهم حين يموتون.

ولم تفد جهود الأطباء العظيمة لرد عادية الطاعون المغير، فبقي يفتك بالباقين من أهل المدينة في غير رحمة ولا إشفاق، برغم توزيع مختلف الأدوية والعقاقير، ورش المنازل والطرقات بالروائح العطرية وغيرها، وتطهير أثواب الموتى والأدوات التي كانوا يستعملونها، وغير ذلك من وسائل الوقاية والعلاج في تلك الأيام.

وجاء "بيبو" إلى مانتو برسالة جولييت إلى روميو، في الوقت الذي

صدرت فيه تعليمات الحاكم المشددة بمنع دخول أي إنسان إلى المدينة أو خروجه منها، وكان أشد ما حز في قلب روميو أنه رأى بعينيه ذلك الرسول عند مدخل المدينة يستعطف الحراس أن يسمحوا له بالدخول كي يسلم رسالة عاجلة إليه، فلم يشك في أن هذه الرسالة من جولييت، وانضم إلى الرسول في التوسل والاستعطاف ليسمحوا له بتسليم الرسالة، ولكنهم أصروا على تنفيذ التعليمات وحاولوا بينهما بالقوة، فعاد الرسول بالرسالة إلى فيرونا مسرعاً مخافة أن يدركه الوباء!

لقاء الحبيبين

عاد روميو إلى مدخل المدينة في اليوم التالي، يدفعه الأمل الكاذب في أن يعود بالرسالة إلى هناك، وفيما هو يتأمل الطريق وعيناه لا تكادان تبصران لفرط غمه واكتئابه، لمح الحراس يشيرون إلى رجل قادم نحوهم على حمار محمل ببعض السلع ويأمرونه بالرجوع ولكنه لا يمتثل.

وكان الرجل يصيح بالحراس قائلاً:

– ماذا جرى في الدنيا؟. لقد دخلت فيرونا أمس فلم أجد بين أهلها على كثرتهم من يشتري شيئاً من بضاعتي، فقد كانوا جميعاً مشغولين بتشييع جنازة عروس هي ابنة كبير منهم، وقد ماتت المسكينة متأثرة بشدة الفرح.

ودارت الأرض بروميو، وترنح للسقوط لولا أن تمالك توازنه ثم صاح بالرجل سائلاً وهو يرتجف ولسانه يتلجلج:

– ماذا تقول يا رجل.. إذ تعرف اسم تلك العروس؟

ونظر الحراس إلى روميو متعجبين، بينما واصل التاجر كلامه فقال:

- اسمها جولييت.. كابلليتي.. واسم زوجها..

ولم يسمع روميو شيئاً بعد ذلك، إذ وقع مغشياً عليه، فلما أفاق كان الحراس قد اضطروا ذلك التاجر إلى الرجوع بالقوة من حيث جاء.

وقال روميو لنفسه بعد أن احتوته غرفته المتواضعة.

– مات جولييت، ماتت شهيدة الحب والوفاء.. ومن عجب أن يظن الفيرونيون أنها ماتت متأثرة بشدة فرحها بذلك الزفاف، ولكني أنا زوجها أمام الله أعلم يقيناً أنها ماتت متأثرة بما أصابها من الهم والحزن وهول ما هموا بإرغامها عليه من زواج لا يقره الله ولا يرضاه القلب والضمير.

وبقي يبكي ويضحك حتى انتصف الليل، ثم نهض فجأة واستل خنجره وهم بأن يطعن به قلبه، ولكنه عاد فأغمد الخنجر وقال يحدث نفسه:

– كلا.. لا أريد أن أموت بعيداً عنها.. يجب أن أموت هناك بجانبها.

ثم تذكر أن مانتو طبيباً يهودياً ساحراً، اشتهر بخبرته الخاصة بأنواع السموم الفتاكة، فنهض من فوره وغادر غرفته، ومضى يضرب في شوارع المدينة وأزقتها الملتوية المظلمة حتى وقف بباب منزل صغير مؤلف من طابقين وطرق الباب بقوة قائلاً: "افتح أيها اليهودي!".

وهنا أطل المعلم اليأس من النافذة ورد عليه بصوت مرتجف قائلاً:

– سأفتح يا سيدي. هأنذا أهبط السلم.. فاغضض من صوتك.

وبعد دقيقة كان المعلم اليائس قد رفع المزاليج وفتح الأقفال العديدة التي أحكم بها غلق الباب من الداخل.

وحاول الرجل أن يتلكأ، ولكن روميو استل خنجره وهدده به، فلم يسعه إلا أن قاده إلى حجرة صغيرة، بدت على جدرانها المتآكلة الرطبة في ضوء المصباح الخافت سلاحف معلقة وثعابين وجماجم بشرية وأوعية زجاجية تلمع بجانب موقد تشتعل فيه النار، وقال الطبيب لروميو وهو يتناول بيده حقاً صغيراً فوق رف هناك.

– هل قلت لك أربعة ريالات يا سيدي، أن المسحوق الذي في هذا الحق لا يقدر بمال، ولكنه لا يستعمل إلا خارج هذه الدار.

وبعد دقائق كان روميو في طريقه عائداً إلى فيرونا، ولم يتوقف عن السير إلا بعد أن هذه التعب والحزن في أصيل اليوم التالي، فتمدد على الأرض في أحد الحقول، ثم نهض بعد الغروب بقليل فأستأنف رحلته.

ودخل المدينة في عتمة المساء، ومضى من فوره إلى مدفن آل كابلليتي وكان باب المدفن مفتوحاً طبقاً للتقاليد التي تقضي بألا يغلق إلا بعد أسبوع من دفن الميت، وكان معه سراج صغير يضاء بالزيت فأشعل فتيلة بقداحته، ودخل المدفن والسراج في يده فإذا هو حجرة واسعة جدرانها من الحجر المنقوش، وفي وسطها تابوتان مفتوحان متجاوران، وبكل منهما جثة يغطيها كفن ثمين عليه شعار آل كابلليتي.

ومد روميو يده فرفع أحد الكفنين عن وجه الجثة التي يغطيها، ثم قرب السراج منه فتبين فيه وجه تيبالدو، فأعاد الكفن إلى ما كان عليه مسرعاً، ثم

اتجه إلى الجثة الأخرى فرفع الكفن عنها وقلبه يخفق بشدة وعيناه تلمعان!

وكان عجبه شديداً، إذ رأى وجهها يفيض بابتسامة عذبة ولم يطرأ عليه أي تغيير، وكأنها في إغفاءة لذيذة.

وزفر زفرة أخرى، ثم أخرج المسحوق السام الذي ابتاعه من الطبيب اليهودي في مانتو، وتناوله كله مرة واحدة فأحسن بأن ناراً ثبت في حلقه وصدره، ولكنه تجلد وانحنى على جثة جولييت المسجاة أمامه، ثم أمسك رأسها بيديه المحمومتين وطبع على شفتيه قبلة طويلة، ثم تمتم قائلاً:

– الآن.. يلتقي الزوجان الحبيبان، ولن يفرق بينهما أحد!

وكانت عيناه عالقتين بفمها المبتسم، فأخذه العجب إذ رأى الابتسامة تتسع رويداً رويداً، ثم رأى ذراعي الزوجة الحبيبة الميتة كأنما تتحركان.

وحسب أول الأمر أن ذلك ليس سوى وهم صوره له السم الذي تناوله، ولكن الحركة استمرت تدب في جسد جولييت، وأخذ صدرها يعلو ويهبط، فصاح قائلاً:

– جولييت.. حبيبتي جولييت.. ماذا أرى يا إلهي؟!

وجن جنونه إذ فوجئ على أثر ذلك بجولييت وقد استوت جالسة في تابوتها، ثم فتحت عينيها وأدارتهما حولها، فلما استقرتا على وجهة ازدادت ابتسامتها، ثم تكلمت وخاطبته بصوتها العذب الحنون قائلة:

– أهذا أنت يا روميو.. لقد كنت موقنة بأنك ستجيء في الموعد المحدد أيها الزوج الوفي الشجاع.

وتراجع الفتي مذعوراً، ثم عاد فاقترب من الفتاة الجالسة أمامه تنظر إليه وتبتسم، وقال وهو يغالب دهشته وحشرجة الموت الذي بدأ يعتمل في صدره مع السم الساري في دمه.

– جولييت؟!.. كيف هذا؟! ألست ميتة يا جولييت؟!

وكان جوابها أن قفزت إلى جانبه وطوقته بذراعيها وراحت تغمر حدبه وشعره وعنقه بالقبلات قائلة:

– ألم اقل لك في خطابي؟!.. لقد أماتني الأب لورنزو بالإكسير الذي أعطانيه، ولكن هذا الموت لم يكن إلا نوماً.. وهأنذا قد استيقظت منه كما وعدني ووعدتك في خطابي، وعما قليل نغادر فيرونا ونحيا زوجين حرين سعيدين، لا نخشى من رقيب إلا حسيب.

وازدادت الحشرجة في صدر روميو، وقال لها:

– اقتربي مني لتسمعي.. إنني أموت الآن.. إن خطابك لم يصل إلي، وقد جئت إلى موقناً بأنك مت حقيقة، وقررت أن ألحق بك فتناولت سماً اشتريته من طبيب يهوى في مانتو.

وهنا صرخت جولييت صرخة عالية، وقالت وهي تنشج بالبكاء:

– روميو؟ حبيبي روميو؟ لا تمت يا روميو.. إني لا أحيا إلا لأجلك.. آه يا حبيبي!.. آه يا زوجي العزيز.. لقد صحت النبوءة إذن فهذا رجل من الشرق أخذ منك مالاً، ثمناً للشر الذي أنزله بك.

ثم تشبثت بجسمه الذي ترنح وسقط بجانب جدار القبر، وراحت تضمه إلى صدرها وتمطرها بقبلاتها قائلة:

– كلا.. كلا.. لن تموت يا روميو، وستحيا لتبقى بجانبي. وفتح فمه وجاهد حتى قال في صوت متقطع خافت:

– ليس هذا بإرادتي ولا بإرادتك يا جولييت، إنها إرادة الله.

ثم تراخت ذراعاه، وتدلى رأسه على صدره، وساد جسمه الخمود.

وراحت جولييت تناديه، وتقلب وجهه وذراعيه ولكن دون أية فائدة.

وفيما هي كذلك لمست يدها الخنجر المعلق بمنطقته فاستلته من غمده، ثم قلبه بين يديها، وغرست نصله حتى نهايته تحت ثدييها.

ولما أحست أن الخنجر اخترق قلبها، وأخذ الدم يصعد إلى فمها، التصقت بجسده الممدد أمامها، ثم انطرحت عليه، وألصقت فمها بفمه، وابتسمت لسعادة اللقاء الأخير.

ولما رأى الأب لورنزو هذا المشهد المروع، استولت عليه الدهشة وأخذته الرعدة، ثم بعث يدعو آل كابلليتي وآل مونتيكي وحاكم المدينة فجاءوا جميعاً إلى المقبرة ذاهلين لا يكادون يصدقون ذلك النبأ الغريب الذي سمعوه.

وبعد أن انتهى الأب لورنزو من تفصيل الأمر لهم بين الزفرات والأنات وفرط التأثر من الجميع، قال له الحاكم:

– أيها الراهب الجليل، لتطب نفسك فقد أديت الواجب وأرضيت الله!

ثم التفت إلى السيد كابلليتي والسيد مونتيكي وقال لهما:

– تلك هي نتيجة العناد والتشبث بالنزاع والخصام.

وبكى الوالدان الحزينان، وتعانقا، وشاركهما البكاء جميع الحاضرين.

وأحاطت فيرونا بدفن الزوجين الحبيبين في تابوتين متجاورتين بمقبرة الدير وسط فناء هادئ صغير تحف به أشجار السرو، والأزهار والرياحين.

وما جاء الربيع حتى كان ضريحا الحبيبين قد غطتهما خميلة كثيفة من الورود والأزاهير، ولكل منهما غصنان ناضران تعانقا فوقهما والتف كل منهما بالآخر، وكانت هذه الظاهرة موضع التأمل من رهبان الدير وزوار الضريحين، وعدوها دليلاً على اتحاد روميو وجولييت في الحياة وبعد الممات.

فهرس